

# رحلة الرصافي من المغالطة إلى الإلحاد

دراسة تحليلية نقدية لكتابه  
الشخصية الحمدية

أ. د. أحمد مُوساوي

د. مُحمَّد صالح ناصر

طه إبراهيم كُوزي

إسماعيل عمر بيوض

د. مُحمَّد مُوسَى بابا عَمي

رحلة الرصافي

من المشاركة إلى الاتحاد

(دراسة تحليلية نقدية لكتابه الشخصية المتمدنية)

تأليف

أ.د. أحمد مؤسوس - أ.د. محمد صالح ناصر

اسماعيل صمر بيونس - طه إبراهيم كوزي

أ.د. محمد بن موسى بابا حني

## هوية الكتاب

اسم الكتاب : رحلة الرصافي من المُغالطة إلى الإلحاد

عدد النسخ : ١٠٠٠

سنة الطبع : ٢٠٠٧

الناشر : مطبعة تاسع الحجج (٤)

## هذا الكتاب

إِنَّ الْمُتَّبِعَ لِمُجَرِّياتِ الأحداثِ في العالم، ليحار من الحملة الشرسة،  
التي تستهدف ثوابتَ المسلمين، ومقدساتهم، وفي مقدمتها:

«القرآن الكريم».

«والرسول مُحَمَّد ﷺ».

«واللغة العربية».

ورُبَّما كانت الحملة - قبل عقد من الزمان - مُنظمة من قِبَل جماعات  
مُتفرقة، أو جامعات حاقدة، أو أحزاب حانقة.

أمَّا اليوم؛ فقد ارتقى التنظيم إلى المستوى العالمي، فسُخرت له  
الأمرالُ الطائلةُ، ومراكزُ البحثِ المُجهَّزة، والعُقُولُ المُدبَّرة، وبخاصَّة؛ بعد  
أحداث 11 سبتمبر 2001م، التي اتخذها الغربُ حصاناً من أحصنة  
طرودة، واستباحوا - جرَّاءها - كُلَّ حرمة، وهدكوا كُلَّ عرض، باسم  
"مُكافحة الإرهاب"، أو "استباق الحياة"... أو غيرها من التعللات  
الرواية في أغلب الأحيان، حتَّى غدا العالم - اليوم - مُستمرَّةً جديدةً  
للمُخرضين، ولقمة سائفة للناقمين.

ولا ريب أنَّ من مُجملات حلقات هذه الحملة المفضوحة، ما تناقلتهُ  
الأخبارُ من الرؤوسِ المهينة للرَّسول الكريم، ممَّا خطَّته ريشةُ الرُسامين  
الدَّناهركيين، وتولَّى كبره سراة القوم من السِّياسيين والعسكريين، فسكَّت

عنه مَنْ يحمل شعارَ حُرِّيَّةِ الرَّأْي، حتَّى ولو كان على حسابِ المُعتَقَدِ  
والدِّينِ؛ وكأنَّ لسانَ حالِ الكثير من المُخطِّطين يقول: "لم أَمْرُ بها،  
ولم تسؤني".

والتَّامُّلُ في مُحتويات "كتاب الشَّخصيَّةِ المُحمَّديَّة" للشَّاعر  
"معروف الرِّصافي" (١٨٧٥ - ١٩٤٥ م)، يَتَبَيَّنُ أنَّ ما جاء فيه من ادِّعاءات  
وافتراءات على الله تعالى، وعلى القرآن الكريم، ثُمَّ على الرِّسول الأمين،  
أُشْنِعَ بكثير ممَّا حَمَلَتْهُ تلك الرُّسومات السَّاقطة، غير أنَّ رَدَّةَ الفعل من  
المُجتمع العربي والإسلامي لم يُسَمَّع لها جَعَجَعَةٌ، إلَّا بعد نَشْر الرُّسومات،  
أثَّما بعد طبع الكتاب وتداوله؛ فلا نكاد نسمع خطبةً رافضةً، أو كتابَةً ناقدةً،  
ذلك أنَّ المُسلمين - اليوم - رهائنُ للإعلام، يُعلِّنون من شأن الأُمُور، إذا أُعْلِيَ  
الإعلامُ من شأنها، ويُنقصون من قَدْرِها، إذا أنقص الإعلامُ من قَدْرِها.

والفضلُ الأوَّلُ في تأليف الرَّدِّ على هذا الكتاب، يعود إلى الأساتذتين  
الكريمَيْن، صاحِبَي "دار الأوائِل" بدمشق، سُورِيَّة: إسماعيل الكردي؛ ويزن  
يعقوب، فهما اللذان وقَّرا لنا نُسخةً من الكتاب، وهما اللذان حرصا على  
نصرة خير البريَّةِ مُحَمَّد، عليه أفضل الصَّلَاة، وأزكى التَّسليم،  
وهما اللذان وقَّرا لنا المصادر الأساسِيَّةَ للنَّقْد، ووَعَدَا - قبل ذلك - بنَشْرِ  
الكتاب نَشْرًا لا نَقْيًا، على غرار ما يُنتَج في "دار الأوائِل" الرَّائدة، وهي التي  
اختارت "نصرة الحقيقة" و"الجدِّيَّة في العَرَض" رسالةً لها، وَدَيَّدَتَا.

ولقد شارك في الرَّد على هذا الكتاب ثلثة من الأساتذة والباحثين، حسب تخصصهم واهتماماتهم، فجاء هذا العمل العلميُّ أنموذجاً للتأليف الجماهيريِّ، ومثالاً للتحقيق العمليِّ من خلال عُلُومٍ مختلفة، هي: المنطق، والأدب، والمنهج، والفلك، والقراءات.

ولسائل أن يسأل: أليس الرَّدُّ هو سبيل لنشر الكتاب، وطريق للتعريف به؟!

أليس من الأفضل أن نسكت عنه، وندعه طيَّ النسيان؟!

أليس في مثل هذا العمل تضييعاً للطاقة، وإهداراً للجهد؟!

غير أننا نقول: هذا صحيح، لو أنَّ الشبهات التي وَرَدَتْ في هذا الكتاب كانت حبيسة هذه الورقات، أمَّا وإنَّها - اليوم - تُكرَّر صباح مساءً، في وسائل الإعلام السَّمْعِيَّة والبَصَرِيَّة، وتُنشر في الكُتُب والمجَلَّات، بِمُختلف اللُّغات واللهجات؛ حتَّى وإن اختلف المصدر، وتباين المؤلِّف، وتلوَّن الشكل، وتقلَّب المحتوى؛ إلَّا أنَّ المؤدَّى واحد، والمغالطات هي المغالطات نفسها، فالكُفْر - كما يقولون - مَلَّة واحدة.

ولنا في رَدِّ القرآن الكريم على شُبُهات اليهود، وفي فَضحه لدغل المنافقين، وتلاعبههم، أَسوَّة حَسَنَةٌ، وَصَدَقَ مَنْ قال: ليس السُّكُوت بِرَدٍّ، والنَّعْمَةُ لا تنجو من كيد العدوِّ بإخفاء الرَّأس في التُّراب.

نُمِّ إنَّنا لا نخاف من العُلَماء والمُتفقين ثقافة إسلاميَّة متينة، ولكنَّنا نخاف من الطَّلَبَةِ والمُبتدئين، ومن ذوي الثقافة الغربيَّة المحضَة، فإنَّ مثل هذه

المغالطات كقبيلة بتشكيكهم، وحرية بزعة إيمانهم، من حيث يشعرون،  
أو لا يشعرون...

ولذا؛ فإن الرد لم يطل الكتاب كله، وهو منشور في قرابة 800  
صفحة، إلا أنه عمد إلى نماذج من المغالطات، فاکشفها، وإلى مواطن الخطأ  
والخطل، فقضحها، والعامل من يقيس الأمور بعد ذلك، فيلحق ما لم يقل  
بما قيل.

والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

أ. د. محمد بن موسى باباعمي، الحمين الجزائر

12 ربيع الأول 1427هـ - 10 أبريل 2006م

كتاب  
الشخصية المحمدية  
في ميزان المنطق والعقل

الأستاذ الدكتور  
احمد مُوساوي



## أ. د. أحمد موسى

- \* من مواليد أولاد موسى، بالجزائر، درس بها أولى مراحلها.
- \* دكتوراه درجة ثالثة في الفلسفة من جامعة الجزائر، سنة 1980 م.
- \* دكتوراه دولة في المنطق، من جامعة السوربون، سنة 1988 م.
- \* دُرِس في مختلف المؤسسات العلمية، والجامعات، منها: ثانوية عمر راسم، ثم كُتِبَت الآداب والعلوم الإنسانية... وكان أستاذاً مُساعداً، ثم أستاذاً مُحاضراً، ثم أستاذاً للتعليم العالي.
- \* رئيس قسم الفلسفة، جامعة الإمارات العربية المتحدة، لثلاث سنوات.
- \* له عدة مؤلفات وأبحاث في المنطق والفلسفة.
- \* نُشِرَ مقالات في عدد من المجلات والدوريات المتخصصة.
- \* أشرف على العديد من رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه.
- \* تقلد العديد من المناصب والمسؤوليات العلمية، وأدار العديد من فِرَقِ البحث.
- \* شارك، وأطر، العديد من الملتقيات الوطنية، والدولية.
- \* من أبحاثه:
- مفهوم القضية المنطقية في الاتجاه الوضعي للمنطق.
- نقد مبادئ العقل من وجهة نظر المنطق المعاصر.
- العلاقة بين الوصل والفضل عند ابن سينا.
- المفاهيم الفلسفية، تكوينها، صياغتها، توظيفها.
- الصورة الحقيقية للمنطق الأرسطي.
- دراسة تحليلية نقدية للأطروحات التي قُدِّمَتْ في قسم الفلسفة بجامعة الجزائر، سنة 1962-1981 م.
- مُعْجَم المنطق وفلسفته...

يرى الكاتب معروف الرّصافي أنّ الغاية التي يرمي إليها  
مُحمَّد ﷺ من الدّعوة إلى توحيد الله الذي لا شريك له، هي إحداث نهضة  
عربيّة دينيّة اجتماعيّة سياسيّة: عربيّة المبدأ، عالميّة المنتهى<sup>(1)</sup>.

واستدلّ على ذلك بما جاء في سيرة ابن هشام، وفي السّيرة الحليّة،  
وما ادّعاء مُحمَّد ﷺ الرّسالة والوحي، وما التّشددُ على قومه في موضوع  
الشّرك بالله إلّا لتوحيدهم، وتكوين قوّة منهم، قادرة على تحقيق غايته.

ولمّا كانت الوحدة الدّينيّة مُجرّدة وغير كافية لإنهاضهم، جعل لها من  
الرّغبات المادّيّة والمعنويّة، واعتمد في دعوته على المُكوّنات الأساسيّة  
لشخصيّته، مثل: الذّكاء، وقوّة الخيال، وعمق التفكير، بالإضافة إلى ما تلقّاه  
من أهل الكتاب، وما اكتسبه أثناء أسفاره الكثيرة، وما تعلّمه - أيضاً - من  
الأعجميّ من المعاني التي كان يُركّبها ويصوغها بلسان عربيّ مُبين<sup>(2)</sup>، على  
أنّها وحي من الله.

وعلى الرّغم من التّكذيب الواضح للرّسالة المُحمّديّة؛ يُصرّح  
الكاتب بأنّ مُحمّداً ﷺ صادق في كلّ ما قاله، ليس لأنّ أقواله مُطابقة  
للواقع، بل لأنّه كان مُصلحاً، لا يُريد إلّا المصلحة العامّة. وما الصّدق  
إلّا مُوافقة المصلحة العامّة، وإنّ خالف الواقع، والكذب هو ما خالف  
المصلحة العامّة، وإنّ وافق الواقع<sup>(3)</sup>.

(1) كتاب الشّخصيّة المُحمّديّة؛ ص 21.

(2) المرجع نفسه؛ ص 78.

(3) المرجع نفسه؛ ص 44 - 45.

ومن خلال دراستنا التحليلية النقدية؛ توصلنا إلى اكتشاف نقائص  
كثيرة في مواقف الكاتب، من أبرزها ما يلي:

أ. التناقضات.

ب. المغالطات.

ج. الأحكام المسبقة.

د. مسألة توضيحية.

## أ - التناقضات

من خلال التحليل النقدي لصفحات كتاب الشَّخصيَّة المُحمَّديَّة،  
أو اللُّغز المُقدَّس، ظهرت تناقضات كثيرة، سنكتفي بعرض بعضها كعيَّة:

### التناقض الأول:

#### حول صفات الشَّخصيَّة المُحمَّديَّة

وَصَفَ الْكَاتِبُ الرَّسُولَ ﷺ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ الْمُمَيَّزَةِ  
لشَّخصيَّته، أهمُّها:

1. «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَظِيمُ عَظَمَاءِ الْبَشَرِ»<sup>(1)</sup>.

2. «أَعْظَمُ رَجُلٍ عَرَفَهُ التَّارِيخُ»<sup>(2)</sup>.

3. «أَنَّ تِلْكَ الشَّخْصِيَّةَ الْعَظَمَى الَّتِي يُمَثِّلُهَا شَخْصٌ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ  
اللَّهِ فِي بَنِي آدَمَ قَدْ اجْتَمَعَ فِيهَا مِنْ عَنَاصِرِ الْكِمَالِ الْبَشَرِيِّ مَا لَمْ يَعْرِفِ التَّارِيخُ  
اجْتِمَاعَهُ فِي أَحَدٍ قَبْلَهُ»<sup>(3)</sup>.

إِنَّ مَا يَجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّلَاثَةِ لِلشَّخْصِيَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، كَمَا يَصِفُهَا  
الْكَاتِبُ، هِيَ صِفَةُ الْكِمَالِ الْبَشَرِيِّ، الَّذِي لَمْ يَعْرِفِ التَّارِيخُ شَخْصاً أَتَّصِفُ بِهِ  
قَبْلَهُ. وَلَا يُجَادِلُ أَحَدٌ فِي أَنَّ صِفَةَ الصِّدْقِ هِيَ مِنْ أَهَمِّ صِفَاتِ - أَوْ مُكَوِّنَاتِ -

(1) المرجع نفسه؛ ص 76.

(2) المرجع نفسه؛ ص 76.

(3) المرجع نفسه؛ ص 76.

الكمال البشري، بالإضافة إلى صفة الأمانة، وصفة العدل. وهي صفات  
عُرف بها مُحَمَّدٌ ﷺ، وشهد له بها مَنْ عرفه، حتَّى أعداؤه.  
لنُقارن هذه المجموعة من الصّفات بمجموعة أُخَرَى ذَكَرَهَا الكاتبُ  
نفسه، وهي:

1. «اخترع مُحَمَّدٌ كلمة التوحيد»<sup>(1)</sup>.

2. «تفنّن بآياته القرآنيّة ما شاء الخيال أن يتفنّن في وصف الجنّة»<sup>(2)</sup>.

3. «كان يطلب الملوك والسُّلطان لقريش من وراء دعوته الدّينيّة»<sup>(3)</sup>.

ما يجمع بين عناصر هذه المجموعة الثّانية هو صفة الكذب؛ لأنّه  
اخترع كلمة التّوحيد، وابتدع القرآن بقوّة خياله، وقال: هو وحي من الله،  
ولم يُسوّح إليه شيءٌ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ  
إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾<sup>(4)</sup>.

إذن؛

مَنْ يدّعي الوحي - وهو في الحقيقة لم يُوحَ إليه شيءٌ - فهو كاذب، وأكبر  
ظالم، وخائن للأمانة.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 18.

(2) المرجع نفسه؛ ص 22.

(3) المرجع نفسه؛ ص 26.

(4) سورة الأنعام؛ الآية 93.

فإذا كان الكمال البشري من صفاته: الصدق، والعدل، والأمانة، وهي صفات مُناقضة للكذب، والظلم، والخيانة، فكيف يكون مُحَمَّد بن عبد الله صادقاً وعادلاً وأميناً، ثُمَّ كاذباً وظالماً وخائناً في آن واحد؟!!

هل يُمكن للباحث عن الحقيقة أن يقع في هذا التناقض!!؟

### التناقض الثاني:

#### موقف الكاتب من بعض المصادر

إنَّ الاستعمال المفرط الملحوظ لبعض المصادر، والاعتماد عليها بصورة غير نقدية، في إصدار أحكام قطعية وتوقعية، في مسائل دقيقة وحساسة في آن واحد، أمر يحتاج إلى عملية تحليلية موضوعية.

فعلى سبيل المثال، وقعت الإشارة في الهوامش إلى السيرة الحلبية مثمة مرة تقريباً، تليها سيرة ابن هشام.

أمَّا المصادر والمراجع الأخرى المختصة في هذا الموضوع مثل: كُتُب التفسير، وكُتُب الحديث المشهورة، فلم يعتمد عليها إلا قليلاً.

إنَّ هذه الملاحظة تدفعنا إلى طرح السؤال حول القيمة العلمية الحقيقية لهذا الصنف من المصادر المعتمد عليها بصورة تكاد تكون كلية.

والغريب في هذا الموضوع أنَّ الكاتب نفسه تساءل عن القيمة العلمية للمصدرين المذكورين، وأجاب بما يلي:

1. «الذي يتعلَّق بسيرة مُحَمَّد فإنه إنَّما كُتِب ودُوِّن في الصُّحف على عهد أبي جعفر المصور، الخليفة الثاني من العباسيين، والذي كتبه هو مُحَمَّد

ابن إسحاق، صاحب المغازي والأخبار، ومنه أخذ مَنْ جاء بعده من الرواة وكتب السِّير، فكلُّهم فيما كتبوا عيال عليه... فمُحمَّد بن إسحاق لم يدوِّن ما دوَّنه من أخبار السِّير المُحمَّديَّة إلَّا بعد أن مرَّ عليها من الزَّمن ما يزيد على مئة سنة، وقد كانت هذه الأخبار في هذه المدة كُلُّها تنقلها الرواة، وتلوَّكها ألسنتهم، فكانت... ملعبَ أهوائهم، ومسرح تحزُّباتهم المذهبيَّة والسياسيَّة، حتَّى وقع فيها من الزيادة والنقص ما وقع، وجرى فيها من التَّغيير والتبديل ما جرى... وتجد في الأمر الواحد روايتَيْن، إحداهما نقول بالنقي، والأخرى بالإثبات... ويُسْتثنى من ذلك القرآن، فإنَّه جُمع في عهد الخليفة الأوَّل أبي بكر، وكتب في المصاحف في عهد الخليفة عُثمان<sup>(1)</sup>.

## 2. «الرواية لا تفيد العلم»<sup>(2)</sup>.

3. «لا شكَّ أنَّ الخبر إذا تداولته الرواة، وطال سيره بينهم من فم إلى أذن، وطال عليه الأمد في سيره وانتقاله بينهم، كان عُرضة للتَّغيير والتبديل، بسبب ما يكون في الرواة من سُوء فَهْم، ومن ضعف حِفْظ، ومن ضيق وعي، وبسبب ما يعترهم من دُھول ونسيان»<sup>(3)</sup>.

لقد أجاب الكاتب - من خلال هذه النُّصوص - بعبارات دقيقة وواضحة، عن القيمة العلميَّة للروايات المُدوَّنة في كُتُب السِّير، والتي بنى عليها أحكامه عن الشَّخصيَّة المُحمَّديَّة في جوانبها كُلِّها، وهذا يدفعنا إلى

(1) المرجع نفسه؛ ص 53.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه؛ ص 55.

طرح السؤال الآتي: لماذا اعتمد الكاتب على المصادر المذكورة، وهو يعلم علم اليقين أنها لا تفيد العلم؟!

لا وجود لإجابة موضوعية لهذا السؤال، وبالتالي؛ فالتناقض واضح بين الاعتماد المفرط على الروايات في إصدار الأحكام وبين نفي القيمة العلمية عنها.

فهل التناقض هو الوسيلة المناسبة للوصول إلى الحقيقة؟!

### التناقض الثالث:

#### حول موقف الكاتب من الشرك بالله

يتحدّد موقف الكاتب من الشرك بالله من خلال مجموعة من المقدمات؛ منها:

1. الشرك بالله جعل الناس مُنقسمين إلى أكثرية عابدة لأقلية معبودة، وهو نوع من السقوط الإنساني من طور أعلى إلى طور أدنى، ومن مضارّه شقاء العابد ونعيم المعبود<sup>(1)</sup>.

2. القضاء على الشرك بالله يستلزم التوحيد؛ أي لا إله إلا الله، وحده لا شريك له؛ أي الرقيّ الإنساني من طور أدنى إلى طور أعلى، أو التحرّر من عبودية المخلوق إلى عبودية الخالق، وهي عبودية شريفة، وفائدتها لا تكون إلا لهم<sup>(2)</sup>، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(3)</sup>.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 17.

(2) المرجع نفسه.

(3) سورة آل عمران؛ الآية 97.



3. للنَّاسِ فِي عِبُودِيَّتِهِمْ لِلَّهِ فَائِدَتَانِ:

- أ. التَّحَرُّرُ مِنَ الْمَضَارِّ الْمُرْتَبَةِ عَنِ الْعِبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللَّهِ.  
ب. اتِّجَاهُ النَّفْسِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي تَفَرَّعَتْ مِنْهُ،  
وَالَّذِي هُوَ مَرْجِعُهَا فِي الْمُنْتَهَى <sup>(1)</sup>: ﴿وَالِيهِ تَرْجَعُونَ﴾ .

إِنَّ هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتُ التَّقْرِيرِيَّةُ تُثَبِّتُهَا الْوَقَائِعُ التَّارِيخِيَّةُ، وَلَا جَدَالَ حَوْلَهَا،  
وَنَسْتَطِيعُ التَّعْبِيرَ عَنْهَا بِالصِّغَغَتَيْنِ اللَّزُومَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ:

- الشُّرْكُ بِاللَّهِ = مَضَارٌّ اجْتِمَاعِيَّةٌ وَسِيَاسِيَّةٌ وَنَفْسِيَّةٌ.

- التَّوْحِيدُ (نَفْيُ الشُّرْكِ) = فَوَائِدُ اجْتِمَاعِيَّةٌ وَسِيَاسِيَّةٌ وَنَفْسِيَّةٌ.

لَوْ تَوَسَّكَ الْكَاتِبُ بِمَا تَقَدَّمَ لَكَانَ مَوْقِفُهُ مِنَ الشُّرْكِ بِاللَّهِ وَاضِحاً، لَكِنْ  
اِنْتِقَالُهُ الْمَفَاجِئَ إِلَى مُقَدِّمَاتٍ جَدَلِيَّةٍ إِشْكَالِيَّةٍ، جَعَلَ مَوْقِفَهُ مِنَ الشُّرْكِ بِاللَّهِ  
غَامِضاً، وَلِتَوْضِيحِ ذَلِكَ سَنَعْرِضُ عَيْنَهُ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ الْجَدَلِيَّةِ؛ مِنْهَا:

1. مَهْمَا كَانَتْ الْعِبُودِيَّةُ لِلَّهِ شَرِيفَةً فَإِنَّ هُنَاكَ مَرْتَبَةً أَعْلَى مِنْهَا،  
وَهِيَ مَرْتَبَةُ الْفَنَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ اللَّائِهَاتِيَّةِ، الَّتِي هِيَ ذَاتُ اللَّهِ: وَعُنْوَانُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ  
(لَا مَوْجُودَ إِلَّا اللَّهُ)، وَهِيَ الْمَعْبَرُ عَنْهَا عِنْدَ فَلَاسِفَةِ الْإِسْلَامِ بِوَحْدَةِ  
الْوُجُودِ <sup>(2)</sup>.

(1) المرجع نفسه؛ ص 18.

(2) المرجع نفسه؛ ص 19.

إنَّ الطَّاعِبَ الْجَدَلِيَّ الْإِشْكَائِيَّ لِهَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَوْضِيحٍ، فَهِيَ  
مَحَلُّ جَدَلٍ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفَلَّاسِفَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ، انْقَسَمُوا حَوْلَهَا إِلَى فِرَقَ  
وَمَذَاهِبَ شَتَّى، كَفَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ لِأَنَّهَا قَدْ تُؤَدِّي إِلَى دَعْوَى الْحُلُولِ،  
أَوْ الْإِتِّحَادِ، كَمَا قَدْ تُؤَدِّي إِلَى الشُّرْكِ بِاللَّهِ.

2. لَقَدْ عَبَّرَ مُحَمَّدٌ عَنْ وَحْدَةِ الْوُجُودِ فِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ  
وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ <sup>(1)</sup>. هَذِهِ الْمُقَدِّمَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى تَفْسِيرٍ خَاصٍّ لِلآيَةِ  
الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ، يَجْعَلُهَا تَدْعَمُ مَبْدَأَ وَحْدَةِ الْوُجُودِ، وَهِيَ مُقَدِّمَةُ ذَاتِ طَاعِبِ  
جَدَلِيٍّ؛ لِأَنَّ هَذَا التَّفْسِيرَ غَيْرَ مَقْبُولٍ مِنْ قَبْلِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى الْأَقْلَى.

3. إِنَّ الْغَايَةَ الَّتِي يَرْمِي إِلَيْهَا مُحَمَّدٌ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ...  
هِيَ إِحْدَاثُ نَهْضَةٍ عَرَبِيَّةٍ دِينِيَّةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ <sup>(2)</sup>.

وَيَسْتَنْتِجُ الْكَاتِبُ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ مِنْ بَعْضِ الرِّوَايَاتِ الْمَدُونَةِ فِي كُتُبِ  
السِّيَرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ لَا تَقِيدُ الْعِلْمَ كَمَا وَصَفَهَا  
الْكَاتِبُ نَفْسَهُ، وَبِالتَّالِي؛ فَهِيَ مُقَدِّمَةُ جَدَلِيَّةٍ.

4. إِذَا عَلِمْتَ مَا يُرِيدُ مُحَمَّدٌ مِنْ وَرَاءِ دَعْوَةِ قَوْمِهِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ  
لَا شَرِيكَ لَهُ، عَلِمْتَ سَبَبَ تَشْدِيدِهِ عَلَيْهِمْ إِنْكَارَ الشُّرْكِ بِاللَّهِ <sup>(3)</sup>.

---

(1) سُورَةُ الْحَدِيدِ؛ الْآيَةُ 3.

(2) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ؛ ص 20 - 21.

(3) الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ؛ ص 21.

هذه المقدمة تجعل مُحاربة الشُّرك بالله وسيلة لخدمة الغاية السَّياسِيَّة والاجتماعِيَّة، وليست غايةً (إرجاع النَّفس الإنسانيَّة إلى أصلها، الذي تفرَّعت منه، وتحريرها من عبوديَّة المخلوق) <sup>(1)</sup>، وطابعها الجدلي واضح، لا يحتاج إلى شرح، أو تحليل.

وبناءً على هذه المُقدِّمات الجدليَّة؛ يستنتج الكاتبُ نتيجةً غريبةً مُناقضةً لموقفه السَّابق من الشُّرك بالله، وما يترتَّب عنه من الأضرار الماديَّة والمعنويَّة؛ إذ يقول: «إنَّ الشُّرك بالله لا يضرُّ النَّاسَ شيئاً، كما أنَّه لا يضرُّ النَّاسَ مضرَّةً ماديَّةً، وإنَّ كان عبثاً مُزرياً بهم» <sup>(2)</sup>. وهو تناقض صريح؛ إذ ينفي ما تقرَّر سابقاً بالنسبة إلى الشُّرك بالله.

إنَّ الوُقوع في هذا التناقض ناتج عن الانتقال من مُقدِّمات تقريرِيَّة إلى مُقدِّمات جدليَّة.

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه؛ ص 17.

## التناقض الرابع:

### موقف الكاتب من الرسالة المحمدية

يتضح موقف الكاتب من الرسالة المحمدية من خلال المقدمات الآتية:

1. كُتِلَ الروايات المدونة في كُتُب السيرة المحمدية تعرّضت للتحريف، وللزيادة، والنقصان، ويُستثنى القرآن الكريم من ذلك<sup>(1)</sup>.

هذه المقدمة تُثبت سلامة القرآن الكريم من التحريف، وتنفي الاعتناء على كُتُب السيرة بسبب التحريف الذي تعرّضت له.

2. «كان مُحَمَّد واسع الخيال، قوَّيه جداً... فإذا تفكَّر في أمرٍ تخيَّله، ونصَّوره، وأخذ يُصوِّره للعيان، حتَّى يكون كأنه يراه بعينه، ويسمعه بأذنيه، ويلمسه بيديه»<sup>(2)</sup>.

3. «وأعظم دليل على سعة خياله وقوَّته ما جاء في القرآن... من وَصَف الجنة وجهنم... ولا ريب أنَّ الجنة التي وَصَفَهَا مُحَمَّد بأوصافها الباهرة المعلومة إنما هي من بنات خياله الواسع»<sup>(3)</sup>.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 53.

(2) المرجع نفسه؛ ص 95.

(3) المرجع نفسه.

4. «ومن الدليل على قُوَّة خياله... ما جاء في الأخبار عن بدء الوحي من رؤيته جبريل في أفق السماء»<sup>(1)</sup>.

5. يرى الكاتب أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لم يرَ جبريل في أفق السماء، بل في ذهنه ونفسه، وسمع منه ما كان يُفكِّر فيه<sup>(2)</sup>.

إنَّ هذه المُقدِّمات - تنفي صراحةً - الوحيَ من الله إلى الرسول ﷺ بواسطة جبريل، أو بأيِّ طريقة أُخرى. وتُرْجِع ما جاء في القرآن الكريم إلى قُوَّة خيال مُحَمَّد ﷺ.

ويستدلُّ الكاتب على صدق مُقدِّماته ببعض الأمثلة على سعة خيال مُحَمَّد وقُوَّته، منها على سبيل المثال: وَصَف الجنةَ وجهنَّم، وتخيَّل جبريل عليه السلام...

وبعدُ الكاتبُ هذه الأمثلة أدلَّةً على قُوَّة خيال مُحَمَّد وَسَعِيَّته، فهو يرى المثالَ دليلاً، وهذا مرفوض لغوياً ومنطقياً.

فمن الناحية اللُّغويَّة: المثالُ هو توضيح شيءٍ بما هو معروف، أمَّا الدليلُ؛ فهو ما يُبرهنُ به على المطلوب.

ومن الناحية المنطقيَّة: فالمثال لا يُثبت شيئاً، ولا ينفيه، ولا يُوصَف بالصدِّق أو الكذب، أمَّا الدليلُ؛ فيُثبت، أو ينفي شيئاً عن شيء، بواسطة الطُّرُق والقواعد المنهجية المناسبة، ويُوصَف إمَّا بالصدِّق، أو الكذب.

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه؛ ص 96.

ويُمكن أن يُستعمل المثال لتوضيح الدليل، ولا يُمكن منطقياً أن ينوب عنه، أو يحمل محله أبداً، لأنها مقولتان من نَمَطَيْن مختلفَيْن.

المثال من نَمَط الفَهْم، والدليل من نَمَط منطقي.

والنتيجة هي: لا وجود لدليل على أن القرآن الكريم هو من خيال مُحَمَّد ﷺ.

إنَّ ما قدَّمه الكاتب هو أمثلة توضيحية فقط، لما افترضه من قبلُ بالنسبة إلى قُوَّة الخيال؛ ولكنَّه لم يُثبت شيئاً في النهاية.

وبدلاً من القول إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كاذب، انتقل إلى تعريف خاصٍّ للصِّدْق والكذب، وهو أنَّ الصِّدْق ليس ما وافق الواقع <sup>(1)</sup>، بل الصِّدْق هو ما وافق المصلحة العامَّة، وإنَّ خالف الواقع. والكذب هو ما خالف المصلحة العامَّة، وإنَّ وافق الواقع <sup>(2)</sup>.

وفي نظر الكاتب أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ صادق في كُلِّ ما أخبر به، ليس بمعنى أنَّ أقواله وأخباره مُطابقة للواقع بمفهوم الصِّدْق المنطقي والعلمي، بل بمفهوم الصِّدْق المُوافق للمصلحة العامَّة؛ لأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لم يكن يقصد إلَّا المصلحة العامَّة من وراء دعوته إلى توحيد الله. والنتيجة هي أنَّ الكذب المُبرَّر بالمصلحة العامَّة يكون صدقاً؛ أي أنَّ القضية الواحدة تكون كاذبة بمُخالفتها للواقع، وصادقة بمُوافقتها للمصلحة العامَّة.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 44.

(2) المرجع نفسه.

ولابدَّ من طرح السؤال الآتي:

كيف يُمكن التَّحقُّق من مُوافقة القضيَّة للمصلحة العامَّة، أو عدم مُوافقتها لها؟!

فلا يُمكن التَّحقُّق من مُطابقة القضيَّة للمصلحة العامَّة، ما لم تكن مُحقَّقة في الواقع، وإلا بقيت فرضاً ذهنيّاً غير مُحقَّق.

إذن؛ التَّحقُّق عن طريق المُطابقة، أو عدم المُطابقة مع الواقع لا مفرَّ منه، وإلا وقعنا في تناقض لا يقبله العقل السليم.

إنَّ تبرير الكذب بالمصلحة العامَّة لا يُحوِّله إلى صدق بأيِّ حال من الأحوال؛ لأنَّ المُبرِّر والصدِّق مقولتان تنتميان إلى نَمَطَيْن مُختلفَيْن:

فالْمُبرِّر من نَمَط سيكولوجي اجتماعي لا يرقى إلى مُسنوى الكليَّة (universality)، فهو يخضع لعادات وتقاليد ومصالح الأفراد والمجتمعات.

أما الصدِّق؛ فهو من نَمَط منطقي كُلِّي (universal)؛ أي يتّسمي إلى القاسم المُشترك بين كُلِّ أفراد الإنسانيَّة المُتميّزين بالعقل، ويُقاس الصدِّق بعلاقته مع الواقع المُشترك بين أفراد الإنسانيَّة جميعهم.

إنَّ الانتقال من نَمَط إلى آخر يُؤدِّي إلى ما يُعرَف في المنطق المُعاصر بالناقضات (antinomies)؛ وهي أخطر من التناقض؛ لأنَّ حلَّها يستلزم تقنيات منطقيَّة مُتطوِّرة جدّاً.

وفي الختام؛ أتضح موقف الكاتب من الرسالة المحمّديّة، وقد انطوى على تناقضات ونقائص اكتفينا بعرض وتحليل بعضها، وسنتقل إلى الصّنف الثّاني من النّقائص التي أشرنا إليها في المللخص؛ وهي المغالطات المنطقيّة:

## ب. المغالطات المنطقيّة

إنّ المنهج التحليليّ النّقديّ الذي سلكناه كشف لنا مجموعة أخرى من النّقائص المنطقيّة، وهي ما يُعرّف بالمغالطات المنطقيّة، وسنكتفي بعرض عيّنة، وتحليلها لتوضيح ذلك.

### أ. مغالطة العكس غير المشروع، أو العكس المستوي:

1. بالنسبة إلى الصّدق والمصلحة العامّة، لا يُجدال عاقل في أنّ للصّدق نتائج وفوائد تعود بالخير والمنفعة على المصلحة العامّة.

أمّا الذي يجب توضيحه هنا، هو أنّ المصلحة العامّة، مهما كانت مُفضّلة، فهناك درجة أعلى منها، وهي درجة القيمة (Value)، فالصّدق قيمة أخلاقيّة تُوجّه السلوك الإنسانيّ، وتُقوّمه، وكذلك هو قيمة منطقيّة تُوجّه التفكير، وتُقوّمه، وهذه القيمة المزدوجة هي التي تُعطي للصّدق محتواه الحقيقيّ، وتحرّره من النزعة النّفعية البراغماتيّة الضيّقة المبنية على المغالطة الآتية:

«إذا كان الصّدق مُحققاً للمصلحة العامّة، فكلُّ ما يُحقّق المصلحة العامّة صدق»<sup>(1)</sup>، وهو عكس غير مشروع منطقيّاً وتاريخيّاً.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 44.



فمن الناحية المنطقية القضية الكلية لا تُعكس إلى قضية كلية إلا إذا كانت كلية سالبة، أمّا من الناحية التاريخية؛ فقد استُخدمت المصلحة كمبرر لاستعمار الشعوب، ونهب خيراتها، وتحويلها إلى عبيد.

2. بالنسبة إلى الفضائل والمصلحة العامة، يتبنّى الكاتب موقف النزعة النفعيّة، وهو الموقف الذي يجعل الفضائل مشروطة بتحقيق المصلحة العامة. فبالإضافة إلى أنّ المصلحة العامة ليست واضحة، وقد تُستخدم كمبرر للزيلة، فالنزعة النفعيّة لا تُعرفنا بطبيعة الفضيلة، بل بنتائجها، ممّا يُؤدّي إلى تكرار المغالطة السابقة؛ أي «كُلُّ فضيلة تُحقّق المصلحة العامة، وكُلُّ ما يُحقّق المصلحة العامة فهو فضيلة»<sup>(1)</sup>.

واجتناباً للوقوع في هذه المغالطة يجب تحديد مفهوم الفضيلة أولاً، ثمّ ما ينتج عنها بحكم طبيعتها، وهذا الفصل بين الفضيلة وما ينتج عنها من منفعة ومصلحة عامة، هو تحرير للفضيلة كقيمة أخلاقية إنسانية؛ أي أنّ المصلحة العامة ليست شرطاً للفضيلة، وبعبارة منطقية نقول:

إذا كانت الفضيلة بطبيعتها تُحقّق المصلحة العامة، فليس كُلُّ ما يُحقّق المصلحة العامة فضيلة.

ويُمكن إضافة سبب رئيسي لذلك، وهو أنّ المصلحة العامة نسبية، وهذه النسبية قد تجعل مصلحة الأقوى فضيلة مُبررة ومفروضة بالقوة، كما حدث في الماضي، ويحدث الآن - في مناطق كثيرة من العالم.

---

(1) المرجع نفسه.

## ب. مغالطة الخُروج عن الموضوع:

يُسلم الكاتب بأنَّ القرآن الكريم مُستثنى من التغيرات والزيادات والتحريفات التي تعرَّضت لها الروايات المدوَّنة في الكُتُب التي تناولت السيرة المحمَّديَّة (1).

نُعَدُّ هذه المُسلمة - من الناحية المنهجية - أهمَّ خطوة في حلِّ اللُّغز المُقدَّس (2)، بما أنَّ الكاتب يتعامل مع القرآن الكريم كما يتعامل مع أيِّ نصٍّ ثرائيٍّ. ومن هنا؛ يجب التقيُّد بالمنهجية المتبعة في تحقيق النُّصوص والمخطوطات الثرائية، وتميَّز هذه المنهجية بخطوَّين أساسيين؛ هما:

أولاً- التَّحقُّق من صحَّة النَّصِّ، ومُطابقتها للنَّصِّ الأصليِّ.

ثانياً- التَّحقُّق من صحَّة المصدر المنسوب إليه.

بما أنَّ الكاتب يُسلم بصحَّة الخطوة الأولى، التي هي شرط أساسيٌّ للانتقال إلى الخطوة الثانية المتعلِّقة بصحَّة المصدر المنسوب إليه، أو عدمها، فالسُّؤال الأساسيُّ الذي يتركز حوله البحث هو الآتي:

أ نسبة القرآن الكريم إلى الله - عزَّ وجلَّ - هي نسبة صحيحة؟ أم أنَّ القرآن الكريم من إنتاج قوَّة خيال مُحَمَّد ﷺ، كما يرى الكاتب؟!

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 53.

(2) نفسه.

فمن المعلوم لدى المحققين في النصوص التراثية أنَّ التحليل النقدي لتلك النصوص يجب أن يتناول النصَّ من جميع النواحي: اللغوية، والعلمية، والمنطقية، والتاريخية... وتحليلها، ومقارنتها، ونقدها نقداً موضوعياً، للوصول إلى نتيجة واضحة، تُثبت - أو تنفي - نسبة المصدر.

فهل قام الكاتب بإنجاز هذه الخطوة المكثلة للخطوة الأولى، التي لا جدال حولها؟!

لم نعتز - على الأقل - في الصفحات التي درسناها، على ما يُشير إلى ذلك. فما قام به الكاتب هو خروج حقيقي عن موضوع البحث، وقد لجأ إلى أسلوب "مغالطة الخروج عن الموضوع". فانطلق من إنكار نسبة القرآن الكريم إلى الله عزَّ وجلَّ، ونسبته إلى قوَّة خيال الرسول ﷺ، مُعتمداً في ذلك على تأويل الروايات المدونة في كُتُب السيرة المحمَّدية، رغم انتقادها ورفضها كمصدر للعلم<sup>(1)</sup>.

ولم يتناول الكاتب - لا من قريب، ولا من بعيد - النصَّ القرآنيَّ بالتحليل والنقد، كما تقتضي المنهجية السليمة التي أشار إليها القرآن الكريم: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَةَ إِنَّهُ لَوَ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾<sup>(2)</sup>.

(1) المرجع نفسه؛ 53.

(2) سورة النساء؛ الآية 82.

لم يُثبت الكاتب أنَّ القرآن الكريم من عند غير الله بتدبيره؛ أي بدراسته دراسة تحليلية نقدية موضوعية، تُبرز الاختلافات الموجودة، إن كانت موجودة فعلاً، بل خرج - كُليّة - عن مناقشة النصّ القرآني، مُعتمداً على تأويل بعض الروايات المطعون في صحتها. وهذا ما يُسمّى عند المناطقة بمغالطة الخُروج عن الموضوع.

### ج. مغالطة الدّور الفاسد:

«كان مُحمّد واسع الخيال، قوّته جدّاً»<sup>(1)</sup>. هذا الحُكم يحتاج إلى دليل، فما هو الدّليل الذي بنى عليه الكاتب حُكمه هذا؟.

«وأعظم دليل على سعة خياله وقوّته ما جاء في القرآن وفي الأحاديث النبويّة، من وَصف الجنّة وجهنّم، ولا حاجة إلى إيراد هُنا؛ لأنّه معلوم مذكور في الكُتب»<sup>(2)</sup>.

هذا ليس دليلاً، بل هو حُكم مُسبق على أنّ ما جاء في القرآن الكريم من وَصف الجنّة وجهنّم هو من سعة خيال مُحمّد ﷺ وقوّته، وهذا الحُكم يحتاج إلى دليل يُثبت، وينفي صفة الوحي عنه، ودليل الكاتب هو ما يلي:

«ولا ريب أنّ الجنّة التي وَصفها مُحمّد بأوصافها الباهرة المعلومة هي من بنات خياله الواسع القوي»<sup>(3)</sup>.

(1) المرجع نفسه؛ ص 95.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه؛ ص 95.

وهنا؛ يتَّضح الدور الفاسد الذي وقع فيه الكاتب:

فهو يستدلُّ على صفة الحُكْم: (مُحمَّد واسع الخيال، قوَّيه جدًّا) بها جاء في القرآن الكريم من أوصاف الجنَّة وجهنَّم.

ويستدلُّ على أنَّ تلك الأوصاف هي من بنات خياله الواسع القويِّ.

وصورة الدور الفاسد هو كما يلي:

(مُحمَّد واسع الخيال، قوَّيه جدًّا)؛ لأنَّه وَصَفَ الجنَّةَ بأوصاف باهرة.

(وَوَصَفَ الجنَّةَ وجهنَّم بأوصاف باهرة)؛ لأنَّه واسع الخيال، قوَّيه جدًّا.

يُلاحظ أنَّ الحُكْم والدليل مُتطابقان، ولا وُجود لدليل يُثبت - أو ينفي - أيَّ شيء. فلم يُثبت الكاتب أنَّ مُحمَّدًا ﷺ كان واسع الخيال، قوَّيه جدًّا كما زعم، ولم ينفِ صفة الوحي من الله. فكلُّ ما قام به الكاتب هو مُغالطة الدور الفاسد.

وسنكتفي بهذه المِثَّة من المغالطات الرِّئيسة، وننتقل إلى نوع آخر من النَّقائص في هذا الموضوع، صنَّفناها تحت عنوان: الأحكام المُسبَّقة.

## ج. الأحكام المسبقة

يرى بعض الباحثين في ميدان المنطق ومناهج البحث أنَّ الحُكمَ المسبقَ هو نوع من أنواع المغالطات لا غير؛ لأنَّ كلاً منها يهدف إلى إقناع القارئ، أو المخاطب، وجعله يعتقد جازماً بصحة الحُكم الذي هو فاسد في حقيقته.

إنَّ هذا الهدف المشترك لا يكفي لاختزال الحُكم المسبق في المغالطة؛ لأنَّ كلاً منها يُبنى بوسائل خاصّة، وتقنيّات مُناسبة لطبيعته، فمن الناحية المنهجية نكتشف المغالطة بواسطة قواعد محدّدة، أمّا الحُكم المسبق؛ فلا يُكتشف بقواعد محدّدة، بل يتطلّب اكتشافه جهداً فكريّاً تحليليّاً دقيقاً.

ومن المعلوم منطقيّاً، أنَّ المغالطة تُكتشف من خلال صُورتها الفاسدة، بعد إفراغها من محتواها الفكري، وتُصنّف المغالطات المشهورة في مجموعات، بناءً على صُورها المشتركة<sup>(1)</sup>.

إنَّ عدم خضوع الحُكم المسبق لقواعد محدّدة يجعله أخطر من المغالطة. بالإضافة إلى ذلك؛ فهو من طبيعة تركيبية مُعقّدة جدّاً، تشمل عناصر تنتمي إلى أنماط سلوكيّة مُتنوّعة: سيكولوجيّة، وثقافيّة، ودينيّة، ومعرفيّة، وتاريخيّة، في صُورة أفكار مُسبّقة كمُقدّمات دُغمائيّة، ونتائج في آن واحد. فهي أحكام جاهزة قبل الاطلاع على الموضوع، ودراسته.

---

(1) يُنظر: الفقرة رَقْم 2، من المغالطات.

إنَّ المنهجية المناسبة لاكتشاف الأحكام المسبقة، وتفادي الوُفُوع تحت تأثيرها هي اتباع المنهج التحليلي النقديُّ المقارن، الذي يُؤدِّي إلى إبراز عناصر الحكم المسبق، وتمييزه بوضوح تامٍّ عن الحكم السليم القائم على مُقدِّمات، أو مُعطيات موضوعية، لا جدال حولها، تلزم عنها نتائج بواسطة وسائل مُحدَّدة.

ولتوضيح ما سبق ذكره حول الحكم المسبق ستقوم باختيار عينة من الأحكام المسبقة الواردة في هذا الكتاب، وقد تمَّ تصنيفها كما يلي:

1. أحكام مُسبقة حول الشَّخصية المُحمَّدية.

1.1. أحكام حول الخصائص الأساسية للشَّخصية المُحمَّدية.

1.2. أحكام حول الخصائص المكتسبة للشَّخصية المُحمَّدية.

2. أحكام مُسبقة حول الرسالة المُحمَّدية.

1.2. أحكام مُسبقة حول الغاية من الرسالة المُحمَّدية.

2.2. أحكام حول الوسائل المُستعملة لتحقيق الغاية من الرسالة المُحمَّدية.

عرض الأحكام المذكورة، وتحليلها:

1. 1. تَمَيِّزُ الشَّخْصِيَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ بِالتَّفْكِيرِ الْعَمِيقِ الدَّقِيقِ<sup>(1)</sup>.

2. 2. تَمَيِّزُ الشَّخْصِيَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ بِالْخَيَالِ الْوَاسِعِ الْقَوِيِّ، الَّذِي يَكَادُ يُقَاوِمُ الْحَقِيقَةَ بِقُوَّتِهِ<sup>(2)</sup>.

3. 3. تَمَيِّزُ الشَّخْصِيَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ بِغَزَاةِ الْعَقْلِ وَالذِّكَاءِ الثَّابِتِ<sup>(3)</sup>.

تلك هي الخصائص الأساسية للشَّخْصِيَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ.

قد تبدو هذه الأحكام حول الشَّخْصِيَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ مُتَّخِذَةً مِنْ حَيْثُ الْمَضْمُونِ اللَّغَوِيِّ، لَكِنَّهَا - فِي حَقِيقَتِهَا - مُتَّخِذَةً فِي صُورَتِهَا الْمُنَاطِقِيَّةِ، فَصُورَتِهَا هِيَ صُورَةُ الْأَحْكَامِ الْجَاهِزَةِ، قَبْلَ دِرَاسَةِ الْمَوْضُوعِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ نَتَائِجُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى مُقَدِّمَاتٍ، أَوْ مُعْطِيَّاتٍ قَابِلَةٍ لِلتَّحْقُقِ، وَلَيْسَتْ قُرُوضاً، أَوْ مُصَادِرَاتٍ قَابِلَةٍ لِلتَّحْقُقِ عَنْ طَرِيقٍ مَا يُسْتَبْطَأُ مِنْهَا مِنْ نَتَائِجٍ.

إِنَّ مَا يُقَدِّمُهُ الْكَاتِبُ كَأَدْلَةٍ عَلَى صِدْقِ أَحْكَامِهِ يَفْتَقِدُ إِلَى أَهَمِّ مَا يُشْتَرَطُ فِي الدَّلِيلِ؛ أَيِّ مَا يُسَمَّى عِنْدَ الْمُنَاطِقَةِ بِاسْتِقْلَالِيَّةِ الدَّلِيلِ عَنِ الْحُكْمِ. وَيَقْصِدُونَ - بِذَلِكَ - عَدَمَ اسْتِثْنَاءِ أَحَدِهِمَا مِنَ الْآخَرِ؛ حَتَّى لَا تَتَحَوَّلَ الْعِلَاقَةُ بَيْنَهُمَا إِلَى مُصَادَرَةٍ عَلَى الْمَطْلُوبِ، أَوْ إِلَى دَوْرٍ فَاسِدٍ.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 16.

(2) المرجع نفسه؛ ص 16.

(3) المرجع نفسه؛ ص 16.



وما يذكره الكاتب كأدلة على صدق أحكامه فهي ليست بأدلة، بل هي قراءات خاصة لروايات مأخوذة من كُتب السِّير، لا تُثبت، ولا تنفي، الأحكام المذكورة، بل تُبرِّرها فقط .

والفرق بين الدليل والمُبرَّر هو أنَّ المُبرَّر قد يُبنى على وسائل سيكولوجية، أو ثقافية، أو غيرها من العوامل ذات الطابع الذاتي، أمَّا الدليل؛ فلا يُقبل إلا إذا بُني على شروط وعوامل موضوعية.

## التحليل النقدي للأحكام المذكورة:

### تحليل الحكم الأول ونقده:

«تتميز الشخصية الحديثة بالتفكير العميق الدقيق»<sup>(1)</sup>.

ما هو الدليل على صحة هذا الحكم؟!

يستدل الكاتب بما يلي: «جاء في كُتُب السِّير أنَّه كان دائم الفكر... وجاء فيها أنَّه يحبُّ الخلوة، فكان يذهب إلى غار، ويبقى وحده الأيام والليالي، ولا شكَّ أنَّه لم يكن له في ذلك النار سُنبل عن التفكير... فهذه الحالة منه، أعني طول تفكيره وخلوته لأجل التفكير... تدلُّنا على أنَّه من تغلبَّ عقله الفطري على عقله المكتسب... هو - إذن - ذو عقلية متميزة على مَنْ حوله من النَّاس»<sup>(2)</sup>.

«ولا ريب أنَّه كلما زاد تفكيره زاد شعوراً؛ لكي يصل إلى الناية التي عزم الوصول إليها، وكذلك فعل، وكذلك كان»<sup>(3)</sup>.

إنَّ ما بعده الكاتب دليلاً على صحة حكمه ما هو إلاَّ استنتاج من الروايات، وهو استنتاج غير صحيح؛ إذ لا وجود لعلاقة لزوم منطقيَّة. أو واقعيَّة بين الخلوة في غار حراء، وبين التفكير العميق الدقيق، ولا وجود

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 16.

(2) المرجع نفسه؛ ص 16.

(3) المرجع نفسه؛ ص 76.

لعلاقة لزوم منطقي، أو واقعي بين الخلوة في غار حراء وبين التخطيط لغاية افتراضية.

إنَّ الاستنتاج الذي عدّه الكاتبُ دليلاً هو استنتاج مرفوض منطقيّاً؛ لأنّه مُستنتج من الحُكم نفسه.

إنَّ استنتاج الدليل من الحُكم نفسه يُخالف شُرُوط الدليل، ويُبقي الحُكم بدون دليل؛ أيّ أنّه: حُكم مُسبق.

### تحليل الحُكم الثّاني ونقده:

«تميّز محمد ﷺ بخيال واسع قوي، يكاد يُقاوم الحقيقة بقوّته»<sup>(1)</sup>.

ما هو الدليل الذي قدّمه الكاتب على صحّة هذا الحُكم؟

«وأعظم دليل على سعة خياله وقوّته ما جاء في القرآن الكريم، وفي الأحاديث النبويّة من وَصف الجنّة وجهنّم، ولا حاجة إلى إيراد هُنا؛ لأنّه معلوم مذكور في الكُتب. ولا ريب أنّ الجنّة التي وَصفها مُحَمَّد بأوصافها الباهرة المعلومة هي من بنات خياله الواسع القوي»<sup>(2)</sup>.

إنَّ صُورة الحُكم المُسبق - هُنا - أَوْضح من صُورة الحُكم الأوّل، ولا تحتاج إلى جهد كبير لإبرازها.

(1) المرجع نفسه؛ ص 95.

(2) المرجع نفسه.

لا يُقدِّم الكاتبُ أيَّ دليلٍ على أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خيلاً قوياً واسعاً جداً، بل أصدر حكماً مُسبقاً، ولمَّا حاول تبريره وَقَعَ في مُغالطة المصادرة على المطلوب.

فهو يستدلُّ على أنَّ مُحَمَّدًا خيلاً قوياً بما جاء في القرآن الكريم من أوصاف للجنة ولجهنم، ويستدلُّ على أنَّ الجنة الموصوفة في القرآن الكريم هي دليل على قوَّة خياله الواسع.

إذن؛ هناك حُكمٌ مُسبقٌ ومُغالطة في آن واحد.

### تحليل الحكم الثالث ونقده:

«تَمَيَّزَتِ الشَّخْصِيَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ بِالدِّكَاءِ»<sup>(1)</sup>.

ما هو الدليل على ذلك؟

حاول الكاتبُ أن يستدلَّ على صحَّة حُكمه بمجموعة من التُّصوص المأخوذة من كُتُب السِّيرة النَّبَوِيَّة، رغم انتقاده لها، وإقراره بأنَّها لا تفيد العلم<sup>(2)</sup>.

جاء في تلك الروايات مجموعة من المواقف والسلوك المنسوب إلى الرِّسول ﷺ، ومنها أنَّ الرِّسول ﷺ تَفَطَّنَ إلى بعض المحاولات التي قام بها بعض المنافقين لقتله، ومنها التَّنبُّؤ ببعض الحوادث التي وقعت فيها بسد،

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 60.

(2) المرجع نفسه؛ ص 53.

ولسنا في حاجة إلى سردها مُفصَّلة؛ لأنَّها معروفة في كُتُب السِّير؛ إذ الذي يجب توضيحه هو ما يلي:

1. إنَّ القراءة المحايدة لتلك الروايات لا تُثبت الحُكْم السابق، ولا تنفيه.

2. إنَّ القراءة الخاصَّة المناهضة التي قدَّماها الكاتبُ هي التي جعلها دليلاً على صحَّة حُكْمه.

3. ينفي الكاتبُ - بصورة ضمنيَّة - صفة الوحي والإلهام من الله تعالى.

4. لم يتوصَّل الكاتب إلى إثبات صحَّة حُكْمه؛ ولا إلى نفي الوحي من خلال محاولته، بل انّضح - من خلال التحليل - أنَّه أصدر حُكماً مُسبقاً حول قوَّة ذكاء الرسول ﷺ، ليَتَّخذ الحُكْم نفسه دليلاً على نفي صفة الوحي عن الرسول ﷺ بصورة ضمنيَّة، بل يُصرِّح بها!

تلك هي مجموعة الخصائص الأساسيّة للشَّخصيّة المحمَّديَّة، عرضناها، وحلَّلناها تحليلاً نقديّاً، بيَّنتُ - من خلاله - أنَّها أحكام مُسبَّقة.

وستنتقل إلى تحليل ونقد الأحكام المُسبَّقة حول العناصر المكتسبة للشَّخصيّة المحمَّديَّة كما يراها الكاتب:

2. 1 أحكام مُسبِّقة حول الخصائص المكتسبة للشخصية المحمدية.

2. 1 يجوز الكاتب أن الرسول ﷺ أطلع على الكتب السماوية من خلال اتصالاته باليهود والنصارى، وبالأخص؛ ورقة بن نوفل<sup>(1)</sup>.

2. 2 اتصالاته بالأعجمي الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، والذي كان يُعلمه المعاني - في نظر الكاتب - ثم يصوغها الرسول ﷺ بلسان عربي مبين<sup>(2)</sup>.

3. 2 يجوز الكاتب بأن الرسول ﷺ قام بأسفار كثيرة خارج الجزيرة العربية، تعرّف من خلالها على أشياء كثيرة، ليست موجودة في بيئته العربية. تلك هي أهم الأحكام التي أصدرها الكاتب حول العناصر المكتسبة للشخصية المحمدية، وبتفاعلها مع العناصر الأساسية أو الفطرية المذكورة سابقاً تكونت الشخصية المحمدية، وسنتناول هذه العناصر بالتحليل والنقد؛ لنرى مدى صحتها.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 96.

(2) المرجع نفسه؛ ص 78.

## تحليل الحُكْمِ الأوَّلِ ونُقْطُهُ:

إنَّ هذا الحُكْمَ هُوَ عبارة عن مُسَلِّمة؛ لأنَّ الكاتب لم يذكر أيَّ دليل على اطلاع الرّسول ﷺ على الكُتُب السّماويّة، والاستفادة منها، قبل النّبوة، وبعدها.

إنَّ هذه المُسَلِّمة هي - في حدِّ ذاتها - حُكْمٌ ودليل على توظيف ما جاء في الكُتُب السّماويّة في وَضْع القرآن الكريم مع الإضافات النّاتجة عن قُوّة التّخيل والذكاء والتّفكير العميق والتّجارب.

لو سلّمنا بما ذكره الكاتب لنتج عن ذلك تناقض واضح؛ لأنَّ القرآن الكريم أنزل من أجل تخلّص عقيدة التّوحيد من التّحريفات التي أدخلها عليها أهل الكتاب من يهود ونصارى، إذن؛ فلا يُعقل أن يتمّ تصحيح التّحريف بما هو مُحرّف، كما لا يُمكن إضافة الصّحيح لما هو مُحرّف؛ ممّا يدلُّ دلالة واضحة أنَّ ما أصدره الكاتب ليس حُكْمًا؛ لأنّه يُعلّل نفسه بنفسه، وبالتالي؛ فهو : حُكْمٌ مُسبق.

## تحليل الحكم الثاني ونقده:

يرى الكاتب أن الآية القرآنية الكريمة الواردة في سورة النحل: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (1) هذه الآية - في نظره - ليست دليلاً كافياً على أن الرسول ﷺ لم يتعلم شيئاً من الأعجمي؛ لأنه لم يكن يُعلمه المعاني بلسان عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، بل كان يُعلمه المعاني فقط؛ إذ إن تعلم المعاني ولو بلسان فيه لكنة أعجمية (2).

إن ما قدمه الكاتب لإثبات صحة حكمه ليس بدليل، بل هو تحليل ضعيف لحكم مُسبق، وينطوي على مغالطة هي: مغالطة اعتبار كل ما هو ممكن مُحقق في الواقع.

فإذا كان كل ما هو ممكن هو قابل للتحقق في الواقع، فليس كل ما هو ممكن للتحقق في الواقع واقعياً؛ أي مُحقق بالفعل في الواقع.

فإذا كان تعلم المعاني ممكناً ولو بلسان فيه لكنة أعجمية، فهل هذا يعني أن الأعجمي علم الرسول ﷺ المعاني بالفعل؛ أي في الواقع؟!

إن إثبات ذلك يحتاج إلى دليل موضوعي واقعي، ولا ينبغي على ما هو ممكن فقط، ولم يُقدم الكاتب أي إثبات واقعي لهذا الحكم، وبالتالي؛ فهو ممكن مُسبق.

---

(1) سورة النحل؛ الآية 103. / المرجع نفسه؛ ص 78.

(2) نفسه.



## تحليل الحكم الثالث ونقده:

لم يُقدِّم الكاتبُ دليلاً على أنَّ ما أخبر به الرسول ﷺ هو نتيجة لأسفاره خارج الجزيرة العربية، فكلُّ ما قدَّمه هو تعليل ضعيف لحُكمه، مَبْنِي على الاحتمال فقط؛ أيُّ أنَّ ما أخبر به الرسول ﷺ عن بلاد فارس - على سبيل المثال - هو: إمَّا أنه سمع وصف بلاد فارس مِّن رَّأى، وإمَّا أنَّه سافر إلى بلاد فارس، فرأى تلك الأشياء.

يُلاحظ أنَّ هذا الاحتمال مَبْنِي على حُكم مُسبق، ينفي الرحي، ولو على سبيل الاحتمال.

تلك هي مجموعة الأحكام المُسبَّقة حول الخصائص المُكتسبة للشَّخصية المُحمَّدية.

وستنتقل إلى عرض وتحليل ونقد الأحكام التي أصدرها الكاتبُ حول الرسالة المُحمَّدية، وتنقسم إلى قسمين:

1. أحكام حول الناية من الرسالة المُحمَّدية.

2. أحكام حول الوسائل المُستعملة لأجل تحقيق الغاية من الرسالة المُحمَّدية.

## 1. أحكام حول الغاية من الرسالة المُحمَّديَّة:

### 1. 1 عرض الحُكْم الأوَّل:

يُحْزَم الكاتبُ بأنَّ الغاية التي يرمى إليها الرَّسول ﷺ من النُّبُوَّة هي إحداث نهضة عَرَبِيَّة دِينِيَّة اجْتِمَاعِيَّة سِياسِيَّة: تكون عَرَبِيَّة في بداية الأمر، ثُمَّ تَعَمُّ، وتشمل النَّاس أَجْمَعِينَ في النِّهَايَةِ<sup>(1)</sup>.

### تحليل هذا الحُكْم ونقده:

اعتمد الكاتبُ على الروايات المُدَوَّنة في كُتُب السِّير كدليل على صحَّة حُكْمه، ويرْجُو عِنا إلى تلك الروايات لم نجد ما يُثَبِّت حُكْمه.

إنَّ ما جاء في تلك الروايات يُوَضِّح ويؤكد أنَّ الغاية من الرِّسالة المُحمَّديَّة هي توحيد الله الذي لا شريك له، ولا معبود سواه. ولا شكَّ أنَّ التَّوْحِيد الخالص له نتائج اجتماعيَّة وسياسيَّة ومادِّيَّة بصفة عامَّة؛ أي أنَّ التَّوْحِيد الخالص يُحدث تغييراً جذرياً في العلاقات بين البشر، يجعلهم مُتساوين أمام الخالق؛ وهو الله.

إذن؛ هُناك مُقدِّمة وهي توحيد الله توحيداً خالصاً، ونتيجة هي: تغيير جَذْرِيٍّ بين البشر، وما يترتَّب عن ذلك من فوائد اجتماعيَّة وسياسيَّة ومادِّيَّة.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 20-21.

وقد جعل الكاتبُ النتيجةَ هي الغاية المقصودة، والفرق بين الغاية والنتائج التي تلزم عن الغاية واضح. وقد انطلق الكاتب من حُكم مُسبق، وحاول تبريره بعوامل ذاتية، لا علاقة لها بالحقيقة، التي اعتبرها هي معبوده الوحيد<sup>(1)</sup>.

## 2. 7 عرض الحكم الثاني:

يجزم الكاتب بأن الرسول ﷺ أراد من خلال إحداث النهضة العربية أن يكون الملكُ والسُلطان للعرب القرشيين بالأخص<sup>(2)</sup>.

## تحليل ونقد الحكم الثاني:

اعتمد الكاتب - كعادته - على الروايات المدونة في كُتُب السيرة النبوية في إثبات حُكمه. وقد وقع الكاتب في تناقض أساسي في هذا الموضوع، فهو يؤكد أنَّ ما جاء في كُتُب السيرة النبوية لا يفيد العلم، كما أشرنا إلى ذلك من قبل<sup>(3)</sup>، ولكنه يستدلُّ بها.

ومن جهة ثانية؛ يؤكد أنَّ القرآن الكريم لم يتعرَّض لما تعرَّضت له الروايات من تحريف وتغيير، ولكنه لم يستدلَّ به فيما يتعلَّق بمبدأ الشورى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾<sup>(4)</sup>.

(1) المرجع نفسه؛ ص 15.

(2) المرجع نفسه؛ ص 30-31.

(3) ص 53.

(4) سورة الشورى؛ الآية 38. / المرجع نفسه؛ ص 36.

إنَّ مبدأ الشُّورى يمنح - على الأقلَّ - كبار الصَّحابة إعطاء رأيهم في هذا الأمر العظيم، وكبار الصَّحابة ليسوا قرشيَّين فقط.

وللتذكير؛ فإنَّ مسألة الإمامة هي موضوع جدل، وهي من العوامل التي ساهمت في تكوين الفِرَق الكلاميَّة، والكاتب لا يجهل ذلك، ولكنَّه اعتمد على ما يُبرِّر حُكمه المُسبق.

2. أحكام حول الوسائل المعتمدة لتحقيق الغاية من الرسالة المحمديَّة:

## 2. 7. عرض الحكم الأوَّل:

يؤكد الكاتب على أنَّ مُحاربة الشُّرك هي من الوسائل التي لجأ إليها الرُّسول ﷺ لتوحيد كلمة العرب، وتكوين قوَّة منهم، تُساعده على تحقيق الغاية التي سعى إليها؛ أيَّ أنَّها ليست دعوة دينيَّة خالصة، بل هي دعوة سياسيَّة<sup>(1)</sup> في حقيقتها.

## تحليل هذا الحكم ونقده:

استدلَّ الكاتب على صحَّة حُكمه بما يلي:

أ. الشُّرك مُضرٌّ بالنَّاس؛ لأنَّه يجعلهم يشقون من أجل التَّعظيم المعبود<sup>(2)</sup>، أمَّا التَّوحيد الذي هو نَفْي الشُّرك؛ فهو تحريره من العبوديَّة لغير الله<sup>(1)</sup>.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 20.

(2) المرجع نفسه؛ ص 18.

ب. ولكنَّ الشُّرك لا يضرُّ النَّاس مضرَّة ماديَّة؛ لأنَّ بعض المُجتمعات  
المُشركة لم يضرَّها شُرْكُهَا بالله (2).

وبالتَّالي؛ فمُحاربة الشُّرك هي وسيلة لتوحيد النَّاس، وليس  
لتحريرهم من العُبوديَّة لغير الله.

فالتناقض واضح بين المُقدِّمة التي انطلق منها الكاتبُ، وهي:  
أنَّ الشُّرك مُضرٌّ، والتوحيد هو تحرير، وبين ما انتهى إليه كنتيجة لتبرير  
حُكمه؛ وهي: أنَّ الشُّرك ليس مُضرّاً بالنَّاس.

وهل هناك مضرَّة ماديَّة ومعنويَّة أكبر من الشَّقَاء وفُقدان الحرِّيَّة؟!.

ومن ناحية أُخرى؛ فلا وُجود لعلاقة بُرُوم ضروري بين تكوين  
الوحدة الدِّينيَّة وتحويلها إلى قُوَّة سياسيَّة، وبين مُحاربة الشُّرك.

فالمُجتمعات المُشركة لها وحدتها الدِّينيَّة، والشواهد التاريخيَّة تدلُّ على  
ذلك. لقد أصدر الكاتب حُكماً مُسبقاً، ولمَّا حاول تبريره وقع في التناقض،  
ولا يُمكن قبول الدليل المُتناقض منطقياً وتاريخياً.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 18.

(2) المرجع نفسه؛ ص 21.

## 2.2 عرض الحكم الثاني:

يجزم الكاتب بأن الرسول ﷺ ادعى النبوة والوحي من الله للتأثير على مشاعر قومه، من أجل تحقيق غايته<sup>(1)</sup>.

### تحليل هذا الحكم ونقده:

ينفي الكاتب النبوة والوحي عن الرسول ﷺ، ولم يُقدم أي دليل ليؤكد هذا النقي، بل قدم مُبرراً لذلك؛ وهو أن إصلاح القوم وتوحيدهم يقتضي أن يقول لهم إنه رسول الله<sup>(2)</sup>؛ حتى يؤثر فيهم، ويستطيع تحقيق غايته، ولم يُقدم الكاتب أي تحليل نقدي للقرآن الكريم، يُوضح - من خلاله - أنه ليس وحياً من الله إلى الرسول ﷺ.

لقد حاول الكاتب تبرير حكمه المسبق بمغالطة استعمال المُبرر في مكان الدليل. ولا يمكن أن يحل المُبرر محلّ الدليل؛ لأنّ الأول قائم على وسائل ذاتية، والثاني يُبنى بناءً منطقيّاً، أو موضوعيّاً.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 45.

(2) المرجع نفسه.

## د. مسألة توضيحية

لقد سلم الكاتبُ أنَّ القرآنَ الكريمَ لم يتمرَّضَ لما تعرَّضتَ له الرواياتُ المدونةُ في كُتُب السِّيرة النبويَّة<sup>(1)</sup>.

إذن؛ نحنُ أمامَ نصٍّ لغويٍّ أصليٍّ، لا جدالَ فيه من هذه الناحية، ويبقى الجدلُ حولَ مصدرِ هذا النصِّ:

- أ هو وحي من الله إلى الرسول ﷺ؟!

- أم هو من عند غير الله؟!

- أم من عند مُحَمَّد ﷺ، أنتجَه بفضلُ مكوّناته الشَّخصيَّة، وتجاربِه؟!

إذا سلّمنا بموقف الكاتب، فهل يُمكنُ الإثباتُ بالأدلة الموضوعيَّة أنَّ توظيفَ المكوّنات الشَّخصيَّة للرسول ﷺ ينتج عنه صدق ما جاء في القرآن الكريم من حيثُ المعنى والمبنى؟!

بها أنَّ القرآنَ الكريمَ هو نصٌّ بلسانِ عربيٍّ مبين، فيمكنُ دراسته كأَيِّ نصٍّ لغويٍّ.

ومن المعروف أنَّ الدارس أو المُحلِّل يستطيعُ تحديدَ الجوانب التي يُريدُ توضيحها.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 53.

وفي دراستنا هذه؛ نريد أن نُركِّز على الجانب المُتعلِّق بِسؤالنا المطروح.  
ومن أجل تحقيق الأهداف العلميَّة مثل الدقَّة والوضوح والاختصار،  
سنقوم بتصنيف الألفاظ والتراكيب القرآنيَّة كما يلي:

أ. طبيعة الألفاظ القرآنيَّة.

ب. الألفاظ والتراكيب القرآنيَّة.

ج. البنية المنطقيَّة للتراكيب القرآنيَّة.

وستتناول عيِّنة من كُلِّ صنف للإجابة عن السؤال المطروح.



## أ. طبيعة الألفاظ القرآنية

من المعلوم - تاريخياً - أنَّ البيئة العربية في الجاهلية كانت - من الناحية الثقافية - بيئة شعرية، ولم يكن لها نصيب يُذكر في الميادين الأخرى؛ مثل العلوم والفلسفة.

ومن المعلوم - أيضاً - أنَّ ممارسة الشعر يعتمد على قوَّة التخيل المستمدَّة من المحسوس؛ أي ما يُدرَك بالحواس. وقوَّة التخيل لا تتوقَّف عند تسجيل الانطباعات الحسية بل تقوم - أيضاً - بعملية تركيبية؛ أي تركيب موضوعات وأشياء من مُعطيات حسية في صورة غير واقعية، يُعبَّر عنها في صورة قصَّة، أو رسم، أو نحت.

إذا نظرنا إلى ألفاظ القرآن الكريم فنلاحظ ظاهرة جديدة؛ وهي وجود ألفاظ مُعبَّرة عن تصوُّرات (concept) لها محتوى مفهومي مُجرَّد، أو ما يُسمَّى بالصُّور الذهنيَّة، التي تُدرَك إدراكاً عقلياً، وليس إدراكاً حسيّاً. وتتميَّز عن الألفاظ المُعبَّرة عن التَّخيُّلات أو الصُّور الخياليَّة التي تُدرَك إدراكاً حسيّاً.

إذن؛ نحنُ أمام انتقال نوعيٍّ من التَّخيُّل (imagination) إلى التَّصوُّر (concept)؛ أي الانتقال من المحسوس إلى المُجرَّد، ومن الأمثلة على ذلك: مفهوم الخلق، والعَدَم، والخُلُود، والبعث، والنُّشُور، ... إلخ.

إنَّ هذه المفاهيم وغيرها لا تُدرك إدراكاً حسيّاً، وليست تركيباً للمحسوسات، فهي صور ذهنيّة، وليست تخيُّلات، بل مُدرّكات عقليّة؛ ولها محتوى مفهوميّ. فهي مُختلفة جذريّاً عن التّخيُّلات، التي هي صور حسيّة في المخيّلة.

وبما أنَّ المفاهيم تُدرك إدراكاً عقليّاً لأنّها مُجرّدة، وبما أنَّ عمليّة التجريد تتطلّب نصباً عقليّاً، وتطوّراً حضاريّاً، فإنَّ المنهجية البيداغوجيّة المُتبعة في تدريس الأمور المُجرّدة، سواء بالنسبة إلى صغار السنّ، أو بالنسبة إلى الأشخاص، أو المُجمّعات البسيطة، تقتضي الانتقال من الأمور المحسوسة إلى ما هو مُجرّد، وذلك عند التّشابه، أو التّماثل.

وقد تعامل القرآن الكريم مع البيئة العربيّة - عند نزول الوحي - تعاملأ يُشبه - إلى حدّ ما - الطّريقة المذكورة. فعلى سبيل المثال: وَصَفَ القرآنُ الكريمُ الجَنَّةَ بأوصاف فيها إشارة إلى ما يُشبه المحسوسات المعروفة، مع التّأكيد على أنّها ليست مثلها.

إنَّ التّمييز بين عمليّة التّخيّل وما ينتج عنها، وبين عمليّة التّصوّر وما ينتج عنها، وعمليّة توضيح المُجرّد بواسطة المحسوس، كلّها أمور غير واضحة بالنسبة للكاتب، والدّليل على ذلك ما يلي:

يرى الكاتب أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كان واسع الحبال، قويّد جدّاً، وكان تفكيره وخياله يجري أحدهما مع الآخر، فإذا فكّر في أمر تخيّل، وتصوّره. وأخذ يُصوّره للعيان. ويُنَدّم مثلاً يوضّح عدم إدراكه للفرق بين التّخيّل

والتَّصَوُّر؛ إذ يقول: «انظر إليه كيف تصوّر جعفر بن أبي طالب لما استشهد في غزوة مؤتة»<sup>(1)</sup>.

فالفرد لا يُمكن تصوُّره، بل يُمكن تخيُّله فقط. وهذا مثال من أمثلة كثيرة تُبيِّن أنه لا يُميِّز بين التَّصَوُّر والتَّخَيُّل، كما أنه لم يُدرِك الفرق بين عمليَّة توضيح المفهوم بواسطة المحسوس، وبين عمليَّة التَّخَيُّل.

ولعلَّ ما جعل الكاتب عاجزاً عن إدراك الفرق بين التَّصَوُّر والتَّخَيُّل هو كونه شاعراً، ليس له معرفة بالمنطق والفلسفة، والشاعر يتعامل مع التَّخَيُّلات، وليس مع التَّصَوُّرات، كما أنه لم يُدرِك أنَّ أوصاف الجنَّة المذكورة في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبويَّة هي وسيلة من وسائل النعيم الموجود فيها، والذي لا تُدرِكه الحواسُّ مُجمعة؛ لأنَّه تصوّر خالصً لعالم الغيب.

إنَّ هذا الانتقال النوعيَّ من التَّخَيُّل إلى التَّصَوُّر يعني الانتقال من مرحلة الشَّعر إلى مُستوى التفكير المُجرَّد، ويوضَّح مسألة أساسية في موضوع الإعجاز المنطقيِّ للقرآن الكريم، فهو بالفاظ عربيَّة، ولكنَّها ألفاظ تُعبِّر عن تصوُّرات، وليست تخيُّلات. فالتَّصَوُّر يُمثِّل مرحلة في التطوُّر الحضاريِّ، وفي تطوُّر العقل الإنسانيِّ في مُجتمع مُعيَّن.

وتلك المرحلة لم يصل إليها العرب في الجاهليَّة.

يُخبرنا تاريخ تطوُّر الفكر البشريِّ أنَّ الفلسفة عند اليونان في العُصور القديمة قامت على التجريد والتَّصَوُّرات وبناء المفاهيم؛ ولكنَّ تحريدها

---

(1) - المرجع نفسه؛ ص 95.

وتصوراتهم كانت مُرتبطة بالمحسوس، وعلى فرض المادّة الأولى، أو الهولي؛ أي أنّه لا يمكن تصوّر إلّا ما هو موجود.

وقد أدّى تأثير الفلسفة اليونانيّة على الديانتين اليهوديّة والمسيحيّة إلى التجسيم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾<sup>(1)</sup>.

ولم يتوقّف التجريد في القرآن الكريم عند مُستوى التّصوّر المُجرّد (abstrait concept)، ولكنّه انتقل إلى مرحلة أعلى؛ وهي مرحلة التّصوّر الصّوري (formal concept)، ومن الأمثلة على ذلك: مفهوم الفطرة، ومفهوم النّشأ، ومفهوم المَلَكُوت، ومفهوم العالمين، ومفهوم الكرسيّ... إلخ.

هذه المفاهيم وغيرها ليست مبنية بواسطة التجريد من المحسوسات، وليست تخيلات، بل هي تصوّرات من مُستوى تجريديّ أعلى. وقد تأثرت الفلسفة الإسلاميّة بذلك، فظهر فيها ذلك النّوع من المفاهيم؛ مثل: مفهوم الشّكّيّة، والعَدَميّة، والكيُفويّة... إلخ. وكانت هذه المفاهيم تطبيقات في الميادين العلميّة، وبالأخصّ في ميدان الرّياضيّات، فتطوّرت نظريّة العدد من العدد الطّبيعيّ المبني بواسطة التجريد من المحسوسات إلى العدد الحقيقيّ (real number)، وظهر الصّفر من بين الأعداد، وهو يرمز إلى اللاشيء. ولم يكن ظهوره ممكناً بواسطة عمليّة التجريد من المحسوس... وظهر الجبر وحساب المُثلثات... إلخ، وكلّها مبنية على التّصوّرات المُجرّدة.

وتوضيحاً لمُستويات الإدراك من المحسوس إلى المفهوم الصّوري نستعين بالمُخطّط الآتي:

---

(1) سورة التّوبة: الآية 30.

مُستويات الإدراك	اللفظ	المعنى	التحليلات
المستوى الأول: مستوى الإدراك الغني:	الكرمي	كرمي مُعيّن محسوس في زمان ومكان يُرى، ويُلمَس، مثال: أجلس - الآن - على كرسي.	الحياة اليومية، والمجالات الفنيّة.
المستوى الثاني: مستوى الشئيل،	الكرمي	كرسي مُعيّن، ولكنه زال عن الحواس، واحتفظت به المخيلة، مثال: الكرسي الموجود في المكتب.	الحياة اليومية، والمجالات الفنيّة (السّحر، النحت، الرّسم، القصة...).
المستوى الثالث: مستوى التجريد، أو تكوين المفاهيم المجردة والصورات المستمدة من المحسوسات،	الكرمي	ليس الكرسي المفرد، بل هو مفهوم كلّ مجرّد من الشّكل والزمان والمكان، فهو صورة ذهنيّة، وليست حسيّة.	المُؤم المتخصّصة والقواميس والفلسفة.
المستوى الرابع: مستوى التجريد الأعلى، أو تكوين المفاهيم والصورات الصوريّة. فهو تجريد من المجرّدات، أي: من الأمور المجرّدة.	الكرمي	بمعي المُنطق، والسّلطان ﴿وَيَسَّعْ كُرْسِيَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ <sup>(1)</sup> .	تفسير القرآن الكريم، الأحداث التّوبية، والرياضيات والمنطق والفلسفة الإسلاميّة وفنّات المُؤم المتخصّصة.

(1) سورة البقرة: الآية 255.

## شرح المخطّط:

أخذنا لفظاً واحداً كمثال؛ وهو لفظ الكرسي:

1. في المستوى الأول: يدرك هذا اللفظ ويُفهم في مستوى الإدراك الحسي، وهو مستوى الحياة اليومية، وهو القاسم المشترك بين البشر كلّهم.

2. في المستوى الثاني: يدرك هذا اللفظ ويُفهم عن طريق التخيل، وهو مستوى العمل الفني، من شعر، وقصة، ورسم، ونحت، وقد كان للعرب في الجاهلية نصيب من هذا المستوى، وبالأخصّ؛ الشعر.

3. في المستوى الثالث: يدرك هذا اللفظ ويُفهم عن طريق الإدراك العقلي، وفي هذا المستوى تظهر المفاهيم العلمية والفلسفية، ولم يكن للعرب نصيب يذكر في هذا المستوى قبل الإسلام.

4. في المستوى الرابع: يدرك هذا اللفظ ويُفهم عن طريق الإدراك العقلي المتطور جداً. وفي هذا المستوى يُفهم القرآن الكريم فهماً عميقاً، وكذا الأحاديث النبوية الشريفة، ومن الناحية العلمية؛ تظهر المفاهيم الرياضية والمنطقية المتطورة جداً.

## التوضيح:

إذا كان العرب في الجاهلية يفتخرون بشعرهم فهم لم يبلغوا المستوى الثالث من مستويات الإدراك، بل توقّفوا عند المستوى الثاني.

وإذا كان اليونان النموذج المتطور للفكر الفلسفي فإنهم لم يبلغوا  
المستوى الرابع، بل توقفوا عند المستوى الثالث.

فهل يستطيع عاقل أن يجزم بأن الرسول ﷺ بمكوناته الشخصية  
وتجاربه، أدرك ما لم يدركه قومه، وحتى الفلاسفة الكبار في العصور  
القديمة؟!

والغريب في الأمر أن الكاتب يجزم بأن محمداً ﷺ أنتج القرآن  
بخياله القوي، وإذا كانت قوة الخيال أقوى من العقل، فما قيمة العقل إذن؟!  
بِم حصل التقدم الحضاري: أ بالخيال؟! أم بالعقل؟!

## ب. استعمالات التراكيب القرآنية

إنَّ استعمالات التراكيب اللُّغويَّة في أيِّ لسان من الألسنة محصورة فيما يلي:

1 . الاستعمال الإخباري: أيّ تبليغ الأخبار والمعلومات الخاصَّة بما يجري خارج ذات الإنسان، وهو ما يُعرَف بالعالم الخارجي بمُستوياته المُختلفة، من الأخبار البسيطة، إلى العُلُوم، إلى عالم الغيب.

2 . الاستعمال التعبيري: ويُقصد به التعبير عمَّا يجري في نفس الفرد من حوادث سيكولوجيَّة ذاتيَّة، من مشاعر وعواطف مُختلفة؛ أيّ ما يُعرَف بالعالم الداخليّ، ويشمل الفُنون المُتنوعة من شعر وقصَّة ونحت ورسم... إلخ.

3 . الاستعمال التوجيهي: أيّ كُلُّ ما يخصُّ الأوامر والنواهي بمُستوياتها المُتدرِّجة، من الأوامر والنواهي البسيطة، إلى الأخلاق، إلى القوانين الوضعيَّة، إلى الشرائع الدينيَّة.

إنَّ هذه الاستعمالات اللُّغويَّة ليست مُوزَّعة بنسب مُتساوية بين المُجتمعات والحضارات المُختلفة في كُلِّ زمان ومكان، بمعنى أنَّ نسبة الاستعمال الإخباري قد تكون في مُجتمع ما أعلى من نسبة الاستعمال التعبيري، وهذه أعلى من نسبة الاستعمال التوجيهي، والعكس قد يكون



صحيحاً. وقد يتغير توزيع النسب المشار إليها في مجتمع ما وفي حضارة ما من فترة تاريخية إلى أخرى.

إذا نظرنا إلى القرآن الكريم نظرة لغوية، بما أنه نصّ بلسان عربيّ مبين، وهو اللسان نفسه الذي كان مستعملاً في البيئة العربية من قبل، فإذا تلاحظ في توزيع النسب الخاصة بالاستعمالات المشار إليها قبل نزول القرآن، وبعده؟!

إنّ الاستعمال الإخباري في القرآن الكريم يتمثل في الأخبار الواردة عن الأمم السابقة، وعن الأنبياء والرُّسل، وما قاموا به، وعن نشأة الكون ونهايته، وعن عالم الغيب وما فيه، وعن الحساب والجزاء... إلخ . وقد عبّرت الآيات القرآنية الخاصة بالتشريع عن الأوامر والنواهي، وهو الاستعمال التوجيهي .

وأما الاستعمال التعبيري؛ فقد عبّرت عنه الآيات الخاصة بالدُّعاء والاستغفار والتوبة، ولا وُجود لما يُعبّر عن هوى النفس، وعن الأمور الدّائنية السيِّكولوجية.

إنّ العملية الإحصائية البسيطة تُبيّن أنّ نسبة الاستعمال التعبيري هي أقلُّ بكثير من الاستعمالين السابقين، ولا يُجادل أحد في أنّ نسبة الاستعمال التعبيري كانت أعلى نسبة قبل نزول القرآن؛ لأنّ البيئة العربية كانت بيئة شعريّة بالدرجة الأولى.

إذن؛ استطاع القرآن الكريم أن يحدث تغييراً جذرياً في الاستعمالات اللُّغويَّة التي كانت سائدة قبل نُزُوله.

وهل يستطيع الفرد الواحد - بقوة خياله ومُكوّناته الشَّخصيَّة وتجاربه - أن يحدث مثل هذا التَّغيير؟!!

إنَّ هذا التَّغيير هو وجه من أوجه الإعجاز القرآنيّ الذي يجب دراسته دراسة مُعمَّقة، تُضاف إلى الإعجاز اللُّغويّ الفنّي، الذي قيل فيه ما يكفي.

### ج. البنية المنطقية للأركانيب القرآنية

يُقصد بالبنية المنطقية - هنا - عدم التناقض، أو التماسق الداخلي للآيات القرآنية، فهل قدّم الكاتب دراسة تحليلية نقدية دقيقة للنص القرآني، أثبت - من خلالها - وجود تناقض، أو عدم اتساق في النص القرآني؟!

إنّ ما هو مؤكّد في هذه الدراسة التحليلية النقدية لعمل الكاتب هو وقوعه في تناقضات كثيرة، ومغالطات متعدّدة ومتنوّعة، بسبب موقفه من الشخصيّة المحمّدية. وقد بنى هذا الموقف الدّائيّ على أحكام مسبقة كما وضّحنا من قبل، ولم يتدبّر القرآن الكريم كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾<sup>(1)</sup>.

وبهذه الآية الكريمة نختم هذه الدراسة التحليلية النقدية لكتاب "الشخصيّة المحمّدية أو اللّغز المقدّس" للكاتب معروف الرّصافي من صفحة 15 إلى 101 .

---

(1) سورة النساء؛ الآية 82.

القرآن فكرة مُحَمَّد  
بين المغالطة والدَّجَل

الأستاذ الدكتور  
مُحَمَّد صالح ناصر

#### أ. د. - مُحَمَّد صَالِح نَاصِر

- \* من مواليد القنطرة، بالجزائر، سنة 1938 م.
- \* تلقى تعليمه في مدارس الحياة.
- \* درّس في القاهرة، وتحصّل على شهادة الليسانس في الأدب العربي منها سنة 1966 م.
- \* تحصّل على شهادة دكتوراه درجة ثالثة، سنة 1972 م.
- \* نال شهادة دكتوراه دولة بمعهد اللّغة والأدب العربي، جامعة الجزائر، سنة 1983 م.
- \* درّس في معهد الحياة، بالقنطرة، ثمّ في معهد اللّغة والأدب العربي، لمدّة ثماني سنوات.
- \* التحق بمعهد القضاء الشّرعى، بسلطنة عُمان، أستاذاً محاضراً من سنة 1991 م إلى غاية سنة 2001 م.
- وهو - حالياً - رئيس لجمعية التّراث، وعميد كُليّة المنار، وأستاذ محاضر بها.
- \* نال الشّهادة التقديرية في الأدب والنّقد من رئاسة الجمهوريّة سنة 1984 م.
- \* نَشَر العشرات من الكتب في الأدب، والنّقد، والتّاريخ، وقصص الأطفال...
- \* له أكثر من مائتي مقال في مختلف النّخصّصات.
- \* من أبحاثه:
- المقالة الصّحفيّة الجزائريّة، نشأتها، تطوُّرها، أعلامها.
- رمضان حمود الشّاعر النّائر.
- أبو اليقظان وجهاد الكلمة.
- منهج الدّعوة عند الإباضية.
- الشّيخ إبراهيم بيّوض مُصلحاً وزعيماً.
- منهج البحث وتحقيق النّصوص.
- تأملات في القرآن الكريم.
- دواوين شِعْر.
- سلاسل عديدة من القصص المرّي للأطفال...

## تمهيد:

المُتأمل في الرؤية التي طرحها مؤلف كتاب "الشَّخصيةُ المحمَّديَّةُ، أو حلُّ اللُّغزِ المُقدَّسِ"، المُؤلفُ الشَّاعرُ العراقيُّ المعروف: معروف الرصافي<sup>(1)</sup>، يُدرِك - بما لا مجال للشكِّ فيه - أنَّه يُردِّدُ نظريَّاتَ سبقه إليها بعضُ المُستشرقين، الذين يُكثِّنون العداءَ السَّافرَ للإسلام والمُسلمين، ويُضمرُّون الكراهيةَ المقيتةَ لكتابهم المُعجز: القرآن الكريم.

وأحسب أنَّ كثيراً من النظريَّات التي طرحها المُؤلف تتَّسم بالتهافت والتطخُّع، بما لا يستوجب الرَّدَّ عليها كُلُّها، أو حتَّى تضييع الوقت في قراءتها.

ولكي يكون ردُّنا مُتَّسماً بالموضوعية والنزاهة، فإنَّنا سنقف عند بعض الآراء التي ناقض فيها المُؤلف نفسه، أو نحا فيها منحى غير منهجيٍّ، ولا عقليٍّ، أو إنساق فيها وراء موقف مُسبق.

## القرآن فكرةُ مُحَمَّدٍ:

ولعلَّ من أوضح افتراءاته وتطاوله على الله - سبحانه وتعالى - ادِّعاؤه بأنَّ القرآن ليس حياً كاملاً من عند الله، وإنَّما هو اشتراك بين الله ومُحمَّد ﷺ؛ إذ معناه من الله، ولفظه من مُحمَّد. هذه نظريَّته الأساسيّة

---

(1) هذا البحث يتناول بالرَّدَّ الصَّفحات 550-700.

التي حاول أن يستشهد لها بآيات من القرآن الكريم، ومن البداية يقول بصراحة جريئة:

«إِنَّ مُحَمَّدًا فِي خَلَوْتِهِ بَغَارٌ جِرَاءٌ كَانَ يُفَكِّرُ فِي وَضْعِ الْأَسَاسِ لِدَعْوَتِهِ، وَمَالِبْتُ أَنْ اسْتَقَرَّ رَأْيُهُ عَلَى أَنْ لَا يَجْعَلَ الْكَلَامَ الَّذِي تُقَدِّمُ بِهِ الدَّعْوَةَ شِعْرًا يُرَوَى، وَيُنْشَدُ، بَلْ يَجْعَلُهُ قُرْآنًا يُقْرَأُ، وَيُحْفَظُ.»<sup>(1)</sup>

فَمُحَمَّدٌ ﷺ - إِذَنْ - هُوَ الَّذِي فَكَّرَ، وَهُوَ الَّذِي خَطَّطَ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ كَذَلِكَ، حَسَبَ زَعْمِهِ.

وهنا ينبغي - بما لا مجال للشك فيه - إرادة الله ووحيه بواسطة جبريل إلى مُحَمَّدٍ، فخالف في ذلك عقيدة المسلمين مخالفة واضحة.

ولكنه ما يلبث أن يقع في التناقض العجيب الذي أصبح سمة بارزة في هذا الكتاب، وقد انزلت رجله مُنْذُ البداية؛ حيثُ راح يبحث عن اسم للقرآن غير الذي عُرف به فيقول:

### أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ:

إذا أردنا أن نأخذ له اسماً من ألفاظه ومبانيه قلنا هو: "كتاب قال وقل"؛ لأنه ليس في الكتب السماوية، ولا في الكتب الأرضية كتاب يُذكر فيه هاتان الكلمتان أكثر من القرآن، لاسيما "قل"<sup>(2)</sup>.

(1) كتاب الشَّخْصِيَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ؛ ص 551.

(2) المرجع نفسه؛ ص 553.

الملاحظ أنَّ المؤلف - هنا - يعترف - من حيث يقصد، أو لا يقصد - بأنَّ القرآن هو " كتاب قُل " . أ لا يدلُّ ذلك دلالة قويّة على أنَّ الكتاب من وحي الله إلى نبيه وصفيّه مُحَمَّد ﷺ ؟ وإلا؛ فَمَنْ المعنيُّ بالخطاب في كلمة " قُل " التي اختارها لتكون اسماً للقرآن، ثُمَّ يعترف - في ثنايا حديثه - أنَّ هناك كُتُباً سِواءِيّة، فَلِمَ يُحرِّم على المسلمين أن يكون لهم كتاب سِواءِيٌّ هُم الآخرين ؟!

ونجد التناقض نفسه في صفحة 554 عندما يتكلَّم عن ظاهرة التكرار في القرآن؛ حيث يقول: «ومن العجيب، الذي ما فوقه عجب، أنَّ القرآن - بتأثيره على نفوس قارئيه وسامعيه - مدين لهذا التكرار، فليس من السهل، ولا من المتعارف عند أولي البيان - أن يكرّر كتاب هذا التكرار، فيخرج منه سليماً غير معيب إلّا القرآن، فبالنظر إلى هذا؛ يجوز أن نُسَمِّي القرآن "كتاب التأثير بالتكرار"».

ألا يدلُّ ما ذهب إليه - هنا - على أنَّ في القرآن شيئاً ليس في مقدور البشر الذين عبَّر عنهم "أولي البيان"، ومُحَمَّد بشر رسول؟! فكيف نفرِّد هذه الخاصيّة التي ليست في مُستطاع البشر إلّا أن يكون ذلك الإعجاز ربّانيّاً إلهيّاً لا يستطيعه أحد من البشر، لا مُحَمَّد، ولا غيره، ممّا يهدم نظريّته السالفة الذِّكر هدماً، وهو ادّعاؤه بأنَّ المعنى من الله، واللفظ من الرسول ﷺ ؟!



## فواصل القرآن،

أفرد المؤلف صفحات كثيرة في كتابه لبدل - من خلالها - على أن القرآن هو كتاب الفواصل، وأنَّ الأسلوب الذي اعتمده هو أسلوب الفواصل، وأنه أخضع المعاني والألفاظ لهذه الخاصية؛ مما أوقعه - حسب زعمه - في عيوب كثيرة، يقول في صفحة 554: «أهم ما يدعو إلى الانتباه ويلفت إليه النظر في القرآن هو فواصله... لأنَّ ذلك هو الطابع الذي يمتاز به أسلوبه... فالفواصل هي قوام أسلوب القرآن».

«... وأكثر السور القصار على هذا النمط، وقد جاء نحو ذلك في بعض السور الطوال».

«... ولا ريب أن هذا ضرب من السجع؛ إلا أنهم لم يُسموه سجعاً؛ نادباً مع القرآن الذي هو كلام الله، والسجع عندهم من شأن الكهانة».

والمؤلف في تأكيده على أن القرآن في أسلوبه اعتمد - أساساً - على الفواصل، يُبالغ في الاستشهاد بالآيات التي رآها ما هي إلا عناية بهذه الفواصل ليس إلا، وإن كان هذا على حساب المعنى والسياق «... ذلك أن محمدًا بُرعي الفواصل كُلَّ المُرَاعاة، ويعتني بها كُلَّ الاعتناء؛ لأنها - كما قلنا - هي الطابع الذي يمتاز به أسلوبه... والإنسان إذا غني بأمر فربما شغلته العناية به عن مُرَاعاة غيره من الأمور، التي تلزم مُرَاعاتها أيضاً، ولا يُنكر أن عنايته بالفواصل قد جاءت بالكثير من المحاسن، ولكنها - مع ذلك - لم تخل أحياناً - مما يُعاب»<sup>(1)</sup>.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 561.

إلحاح المؤلف على ظاهرة الفواصل في القرآن الكريم ليس القصد منه الانبهار بما في أسلوب القرآن من إعجاز بياني، أو بلاغي، بل، بالعكس؛ ليُظهر - حسب اعتقاده - أنه أسلوب مُحَمَّديٌّ بشريٌّ، استمدّه من البيئة العربيّة التي عرفت الشعر، واعتنّت به، غير أنّ مُحَمَّداً - حسب زعمه - أراد أن يُطوّر هذا الأسلوب، وينفرد باتجاه فيه، فلم يتقيّد بالفواصل تقيد الشعر بالقوافي، بل جعلها مُطلقة، غير مقيدة.

«... إنّ مُحَمَّداً قد أطلق الفواصل، وفكَّ عنها القيود التي كانوا يتقيّدون بها في كلامهم المنظم والمسجوع، فلم يُسراع فيها الإعراب، ولا حُرُوفَ الرّويِّ، ولا عُيوب التكرار... فاتّسع - بذلك - لأسلوبه مجال الكلام، فجاء أسلوب القرآن مُتوسّطاً بين النّظم والنثر، وبين النثر المرسل والنثر المسجوع، وذلك أسلوب مُبتكّر، لم تكن العرب تعرفه.»<sup>(1)</sup>

إنّ التأمّل في نظريّات المؤلف ليعجب - حقّاً - كيف يُناقض آخرُ الكلام أوّلَه، إنّه يعترف - هنا - أنّ القرآن ليس شعراً، ولكنه يُصرّ على أنّه أسلوب بشريٌّ مُحَمَّديٌّ، وليس أسلوباً إلهياً!!

ونحنُ نتساءل - مُجازاةً لنظريّته - : أيُّ طاقة بشريّة هذه التي تجعل مُحَمَّداً - وهو الأُمّي - يأتي بأسلوب مُبتكّر لم تكن العرب تعرفه، وهو يعلم عِلْمَ اليقيني أنّ العرب هم سادة البيان؟!

(1) المرجع نفسه؛ ص 557.

وإنَّ المرءَ ليعجب هذه الجرأة الوقحة، والتَّطاول السَّافر على أُسْلُوب القرآن، وقد راح يُعَدِّد الآيات التي يراها من منظوره على أنَّها معائب أُسْلُوبِيَّةٌ، وهفوات تعبيريَّة، كما جاء في مثل قوله:

«... وها نحنُ نذكر لك بعض ما وقع فيه في سبيل مُراعاة الفواصل من التَّقديم والتَّأخير، كقوله: ﴿أَهْتَؤَلَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ الأصل فيه: "أَهؤلاء كانوا يعبدونكم"، فقدَّم المفعول على عامله، وقوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾، فقدَّم المفعول، وآخر الفاعل مُراعاة للفاصلة، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾، فقدَّم ما هو مُتأخِّر في الزَّمان، وقوله: ﴿وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾، فقدَّم الصِّفة - التي هي مُجْلة - على الصِّفة المفردة مُراعاة للفاصلة، والأصل فيه: "كتاباً منشوراً يلقاه"... ومن ذلك الحذف مُراعاة للفاصلة؛ مثل قوله: "فكيف كان عذابي ونذر"، وقوله: ﴿عَلِمُوا الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ﴾. <sup>(1)</sup>

إنَّ جرأة المُؤلِّف - هنا - تتجلى في هذه الصِّفحات في أوضح صُورها، وأسمح ادِّعاءاتها، فهو - لكي ينال من القرآن ادِّعاءً بأنَّه أُسْلُوب بشريٌّ مُخَمَّدِيٌّ - يُعَدِّد ما يحسبه عيباً أو عناية بالفواصل ليس إلَّا. وإنَّ أبسط مُتذوِّق للبلغة - وهي ذائقة يملكها أبسط النَّاس تعلُّماً وتديباً للقرآن - يُدرك أنَّ ما حسبه عُيُوباً ليست كذلك، بل العُيوب هي التي ساقها تصحيحاً لما يحسبه هو الصُّواب، والقارئ البسيط يُدرك البُتُون الشَّاسع بين أُسْلُوب القرآن المُعْجَز، وبين أُسْلُوب الرِّصافي السَّاذج. ولناخذ لذلك مثلاً مُقارنين بين الآية الكريمة في قوله تعالى: "ونُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يلقاه

(1) المرجع نفسه؛ ص 560-562.

منشورا". وبين ادّعائه بأنّ الأصحّ والأجمل هو أن يقول: "ونخرج له يوم  
القيامة كتاباً منشورا يلقاه". أي ذائقة ساذجة مُنحرفة هذه؟!

إنّ المؤلّف حين يعرض للأمثلة الكثيرة - التي يحسبها من منظوره  
المتعسّف معايب وأخطاء بلاغيّة - يذهب إلى حدّ الزّعم بأنّ القرآن كثيراً  
ما يحذف مُراعاة للفواصل، وكثيراً ما يزيد ما هو غير لازم، وكثيراً ما قدّم  
الضمير على ما يُفسّره<sup>(1)</sup>..

وأحسبه - بهذا الموقف - يُغالط نفسه؛ لأنّ أبسط مُتدوّق للبلاغة  
العربيّة يُدرك - دون أدنى شكّ - أنّ التعبير القرآني أحلى وأجمل وأبلغ على  
الصّورة التي جاء فيها؛ لأنّه يعلم علم اليقين أنّ العرب كثيراً ما حدّفت  
عند الوقف، وكثيراً ما زادت حُرُوفاً عند الإطلاق. فأَيُّ عيب في أن يقول  
القرآن: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا﴾؛ بإضافة ألف الإطلاق في آخر كلمة  
الظنون!! وأيُّ عيب أن يقول: ﴿وَأَطَعْنَا آلَ رَسُولَا﴾، ﴿فَأَصْلَوْا السَّبِيلَا﴾  
ولو كانت الزيادة مُراعاة للفاصلة وحسب!! على أنّ المؤلّف نفسه ما يلبث أن  
يعترف بأنّ ذلك وارد في الأسلوب العربي، ولا سيما في الشعر، الذي كثيراً ما  
جاءت قوافيه مُطلقة بزيادة الألف إطلاقاً للصوت، كما جاء ذلك في قول  
المتنبي:

فمرّت غير نافرة عليهم      تدوس بنا الجهاجم والتّريب<sup>(2)</sup>

فلماذا يُتعدّ عيباً في القرآن ما هو معروف ومعمول به في الأسلوب

العربي؟!

(1) تراجع الصّفحات: 560-564.

(2) ديوان المتنبي، شرح المعكري؛ ج 1/ ص 138.

## الفواصل القَلِقة:

يَدَّعي المؤلَّف - في صفحات كثيرة (566-569) - على أنَّ في القرآن فواصل قَلِقة، غير مُتمكِّنة؛ لأنَّها سبقت مُراعاة للفواصل ليس إلَّا، فكانت تلك العناية بالفواصل على حساب المعنى أحياناً، وعلى حساب البلاغة أحياناً أُخرى. ويسوق أمثلة كثيرة يراها تخدم نظريَّته، والعجيب في الأمر أنَّه عندما يسوق آراء الذين يُخالفونه الرَّأي؛ كالزَّخشرى، والسيوطي، والباقلاني، يُعرفهم بسيل من الألفاظ الشَّنيعة، ويهزأ بفكرهم وعلمهم هزأً ساخراً؛ يقول في صفحة 566:

«... من هذه الأمور التي وقعت في سبيل الفاصلة يظهر لك جلياً كيف كان مُحَمَّد يعتنى بالفواصل التي لم تكن آياتُ القرآن آياتٍ إلَّا بها، ومن مزيد اهتمامنا نراه - في بعض الأحيان - يرمي بالفاصلة لمُجرَّد الفصل، من دُون أن يلتفت إلى ما تقدَّمها من الكلام، فتأتي الفاصلة قَلِقة في مكانها، غير مُستقرَّة، ولا مُطمئنة».

ومن الأمثلة التي استشهد بها - والأمثلة كثيرة - قوله تعالى: ﴿وَلَتَنبَلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ ويقول - تعليقاً على هذه الآية - : «أي نسمع ما يحكي ويخبر به، وما يقول النَّاس عنكم، ولا يخفى أنَّه بعد أن يبْلُوهم، فيعلم المُجاهدين منهم، والصَّابرين، لم تَبَق حاجة إلى سماع أخبارهم، وما يقوله النَّاس عنهم، ولكنَّ

الفاصلة هي التي أتت بالجملة الأخيرة، وهي - كما تراها - قَلِقةٌ، غير مُتمكِّنة في المعنى المراد، على أَنَّ الآيةَ كُلَّها ليست ممَّا يليقُ أَنْ يقوله علام الغُيوب».

لقد بلغ المؤلِّف - هُنا - حَدَدًا مُسمَّفاً في التَّطاول والادِّعاء، وأبان عن جهل - أو تجاهل - لما تحمله الآية الكريمة من المعاني البلاغيَّة في صياغتها المعجزة: فإنَّ الله - تعالى - لم يكتف باختيار الصَّحابة بالجهاد بالنفس والمال، وإنَّما اختبرهم في نفوسهم لمعرفة المقدار الذي ستصل إليه في الصَّبر عند المحن، وهو لا ينظر إلى حالة نفوسهم عند الجهاد، وحسب، بل ينظر - أيضاً - إلى حالتهم التي يكونون عليها خارج هذا الإطار؛ في تعاملهم مع النَّاس، في حياتهم اليوميَّة العاديَّة، وذلك مصداقاً لما قاله الرِّسول الكريم: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"<sup>(1)</sup>. تعبيراً عن الأصعب في الحياة، وهو التَّعامل مع النَّاس في حياتهم اليوميَّة، التي هي عكُّ الأخلاق والسُّلوك، ولم أدر كيف تسنَّى للرِّصافي أَنْ يتطاول في الادِّعاء إلى حدِّ القول: «إِنَّ الآيةَ كُلَّها ليست ممَّا يليقُ أَنْ يقوله علام الغُيوب». لعلَّه يقصد من هذا القول التَّأكيد لنظريَّته القائلة بأنَّ القرآنُ إِنَّمَا كتبه مُحَمَّدٌ؟!

ومن أمثلة التَّطاول والجهل ما جاء من تعليق على الآيات الكريبات في صفحة 568؛ حيثُ يستشهد بها على أَنَّ الفواصل زائدة لا معنى لها سوى مُراعاة الفواصل. من ذلك قوله تعالى في آل عُمُران: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾<sup>(2)</sup> ذُرِّيَّةٌ

---

(1) قالها الرِّسول - عليه السَّلام - حين رُجوعه من غزوة تبوك؛ يُنظر - الخادمي، مُحَمَّد ابن مُحَمَّد: بريقة محموديَّة؛ دار لإحياء الكتاب العربي.

بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ<sup>١</sup> وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠﴾ قوله في آل عمران: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ<sup>٢</sup> وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ قوله فيها أيضاً: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ<sup>٣</sup> وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ يقول تعليقاً على هذه الآيات: «فأنت ترى أنَّ الجُمْلَ الأخيرة في هذه الآيات لو حُذِفَتْ لما نقص للكلام شيء، فما جيء بها إلا للمُجَرَّد الفصل».

إنَّ أبسط قارئٍ للقرآن يستطيع أن يُدرك مكانة الجُمْل الأخيرة في الآيات، وإمدادها بالقُوَّة اللَّازِمة، ويُدرك - بقليل من التأمل - أنَّه لا يُمكن إطلاقاً حذفها من مكانها، ولو فعلنا ذلك، إذا؛ لاختلَّ المعنى اختلالاً عظيماً. ولو أنَّ الرِّصافي فهِمَّ البلاغةَ فَهَمَّ العَرَب الأَفْحاح لها لأدرك أنَّه لا يُمكن الفُضْل في الكلام بين لفظ ومعناه، ولأيقن أنَّ الكلام البليغ هو: «كُلُّ ما تُبَلِّغ به المعنى قلب السامع، فُتَمَكِّنَه في نفسه، لتَمَكِّنَه في نفسكَ على صُورة مقبولة وعَرَض حَسَن»<sup>(١)</sup>.

(١) يُنْظَر؛ العسكري: الصَّنَاعَتَيْن؛ ص 39.

## الخطأ في المنهج،

والمُتأمل في تحليلات المؤلف يلحظ - بجلاء - خطأ منهجه المليء بالتناقض، كما أشرتُ آنفاً، فهو - أحياناً - يعتمد أقوال المفسرين الخاطئة، أو المُعتمدة على الإسرائيليات على أنها خطأ في القرآن نفسه، كما جاء ذلك في صفحة 569 :

«... هكذا ترى في القرآن فواصل مُتمكّنة، وأُخرى قَلقة، وليس من غرضنا - هنا - استقصاؤها... وترى المفسرين - أناهم الله - دائبين على رأب كُلِّ شأى، فهذا الزّخشري في الكشف في نصيب من التّفنن في ذلك حتّى إنك لترقُّ له حين تراه يُجهد نفسه تخيلاً، ويُنهك فكره إبعاداً في توجيه الفواصل، وغيرها، من أيّ القرآن، خصوصاً في تقدير المحذوفات، وتصوير المُقدّرات، وإليك ما ذكره صاحب الإتيقان في توجيه إحدى الفواصل من سورة الإسراء في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ قال: «إنَّ الختم بالحلم والمغفرة عقب تسبيح الأشياء غير ظاهر في بادئ الرّأي، قال: وحكمته أنّه لما كانت الأشياء كُلُّها تُسَبِّح، ولا عصيان لها، وأنتم - يا أيّها النّاس - تعصونه، ختم الآية بقوله ﴿حَلِيمًا غَفُورًا﴾، مُراعاة للمُقدّر في الآية؛ وهو العصيان». هذا كلامه.

ثمّ نراه يُهاجم رأي الزّخشري والسيوطي في توجيه تلك الفاصلة، ولم يقبل ما ذهب إليه، بأيّ حال، لأنّه لم يُوافق مذهبه في الفواصل، مع أنّ



أبسط نأثل وتدبّر في الآية يُؤيّد ما ذهباً إليه، لاسيّما وأنّ العلّوم الحديثة أثبتت بالمختبرات أنّ التسبيح وارد، وليس غريباً، وأنّ المخلوقات أطوع لله، وأحسن وأتقى لربّها، بالدّكر والشّكر والتّسبيح والحمد من كثير من الناس العُصاة المُجاهرين بالعصيان، النَّاسِين ذِكر الله.

والعجيب من أمر الرّصافي إصراره على نظريّته، ثمّ تهكّمه السّاخر، وعبّجهم السّافر على كلّ مَنْ يُخالفه الرّأي؛ كما جاء ذلك عنده تعليقاً على تلك الآراء السّابقة من المُفسّرين؛ حيث يقول:

« إنّ الكلام في الآية إنّما سبق لبيان تسبيح الأشياء، لا لمُؤاخذه الذين لا يفقهون التّسبيح، والمقام - كما قلنا - مقام دعوة إلى تفكّر واعتبار، لا مقام حلم وغفران، ولكنّهم يتمخّلون، ولو كان ذلك في غير القرآن لما تمخّلوا هذه التّمخّلات، ولا تخيّلوا لأجله هذه التّخيّلات، بل عابوا على قائله، وانتقدوه. والحقيقة هي أنّه قال في آخر الآية "إنّّه كان حليماً غفوراً" لمجرّد الفضل، وليس الفضل بفرض تافه، بل هو أمر جليل؛ لأنّ الفواصل - كما قلنا - هي قوام أسلوب القرآن<sup>(1)</sup>.

هكذا يستخدم الرّصافي هذا الأسلوب الماكر، وهو أسلوب استشرافيّ معروف، ظاهره المدح، وباطنه الذّم؛ لأنّه - في النهاية عندما يُنأثل - يبيّن لنا أنّه يُريد منه تأكيد نظريّته أنّ القرآن فواصل ليس إلّا، أمّا المعنى، وأمّا الرّوح التّوجيهيّة للنّاس؛ فلا وُجود لها.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 570.

وخطأ الرصافي - في منهجه - يتبين من خلال اعتماد كتابه - وأكاد أقول كُليّة - على معلومات من كتاب الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي، ولكنه ما إن يُخالفه في رأي من آرائه حتّى يصفه بالسذاجة وقلة المعرفة، إلى غير ذلك من الثعوت التي برع فيها براعة كبيرة، ولم يكد يسلم من لسانه أحد، فهو أعرف الجميع، وأعلم العلماء، وأفهم الفاهمين، الذي ترجع إليه الكلمة الأخيرة والرأي الأسد.

وقد أداه ذلك الإحساس إلى نعت القرآن بنُعوت تقشعرُ منها الأبدان، فيصف معاني بعض الآيات بالمعرة، وبساطة النظر، وسذاجة المعرفة، حتّى إنّه ليقول - تعقياً على تسمية سُورة النور بالنور - بأنها لا تُطابق محتواها، ويقول في تبجّع وتناول سافر:

«... أمّا أنا؛ فلو أردتُ أن أختار لسُورة النور اسماً غير اسمها لقلتُ: سُورة الآداب الاجتماعية، لاشتغالها على ذكر الآداب الاجتماعية»<sup>(1)</sup>.

وأنا لا أحبُّ أن أعلّق على هذا الذي ذهب إليه؛ لأنّ تمافته ظاهر للعيان.

ومن خطئه الواضح في المنهج إنكاره - أحياناً - للأحاديث الضعيفة والموضوعة، وهذا ردّاً لما جاء في المصدر الذي اعتمده: الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي، وهو أمر معروف مشهور. ولكننا نجده - أحياناً كثيرة أخرى - يعتمد الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ويدافع عنها، إذا وافقت

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 571.

هواه، ورأت رأيه، كما جاء في مثل قوله: «... وقد كره بعضهم أن يُقال سورة كذا، لما رواه الطبراني والبيهقي عن أنس مرفوعاً: "لا تقولوا سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن؛ قولوا: السورة التي تُذكر فيها البقرة، والسورة التي يُذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله»<sup>(1)</sup>.. فيقول المؤلف مُعلّقاً:

«... فهذا الحديث ينفي أساء السور، ويُنكر على الناس ما يقولون عن سورة البقرة... إلخ، ويمنعهم من إضافة السورة إلى البقرة... ولكن ابن الجوزي قد ادّعى أنَّ هذا الحديث موضوع، وما أدري لماذا يكون موضوعاً وهو معقول، وليس فيه ما يُخالِف الكتاب، ولا السُنَّة»<sup>(2)</sup>.

السؤال البسيط الذي نسأله نحن، تعليقاً على رأي الرصافي: عن أيِّ كتاب، وعن أيِّ سُنَّة يتحدث؟!

أول يقل إنَّ الكتاب - أي القرآن - من تأليف مُحَمَّد؟! وعن آية سُنَّة يتحدث إذا كان القرآن من تأليف مُحَمَّد ﷺ؟! فيا لله لهذا التناقض العجيب؟!

### فواتح السور

بعد أن يستعرض المؤلف ما جاء في الكشف للزحسري، ويُناقشه، يُؤكِّد ما ذهب إليه - مُنذ البداية - على أنَّ القول بأنَّ مُحَمَّداً أُمِّي لا يقبله العقل، ويقول:

(1) المرجع نفسه؛ ص 572.

(2) المرجع نفسه؛ ص 572.

«...وفي هذا ما يدلُّ - صراحةً - أنَّ افتتاح بعض سُور القرآن بهذه الحُرُوف، وتَرَك ما سواها، لم يكن واقعاً عن طريق المصادفة والاتِّفاق، بل كان عن قَصْد في النِّيَّة، وتفكير في العقل، وترتيب في الدَّهن، وتنسيق في الرَّمز، وتلميح في الكلام؛ إذ يُعَدُّ كُلُّ البُعْد أن يكون ذلك قد حصل صدافاً واتِّفاقاً. فقد أُشير بعدد السُّور المُفتتحة بالحُرُوف إلى عدد حُرُوف الهجاء في اللُّغة العربيَّة، كما أُشير بهذه الحُرُوف الفواتح إلى أنَّها الأصل في النُّطق بالكلام المملُوظ، وأنَّ ما عداها من الحُرُوف فتابع لها، ومُتَمِّم، وهذا لا يُمكن صُدُوره من أُمِّي لا يعرف القراءة، ولا الكتابة... أمَّا نحن؛ فنقول: إنَّ فواتح السُّور تدلُّ دلالةً قطعيَّةً على أنَّ مُحَمَّدًا كان يعرف القراءة والكتابة...».

أمَّا كون معرفة النَّبي للقراءة والكتابة حاصلة له بوحي من الله لا بتعلُّم من أحد؛ فذلك مسألة أُخرى، لسنا بصدد الكلام عليها الآن...»<sup>(1)</sup>.

إنَّ أبسط مُتأمل في موقف المُؤلِّف يُدرك أنَّه يُعالط نفسه، وهو - عندما أعوزه الدَّلِيل على تفرُّده وشُدُوذِه بهذا الرِّأْي - تهرَّب عن البحث والجواب، فهل مَنْ يُدرك أنَّ حُجَّجَه واهية لا تقوم لها قائمة؟! وهل يكون موقفه غير هذا، وهو يُخالف النِّصَّ القرآنيَّ القائِل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ هكذا بأداة التعريف، ويُخالف التاريخ، ويكذِّب السِّيرة والآثار، ويشدُّ عن إجماع الأُمَّة، وما سمعنا بهذا القول إلَّا من بعض المُستشرقين المُنتطعِين؟!.

(1) المرجع نفسه؛ ص 575.

والمعجيب في أمر الرّصافي أنّه عندما طرح فكرة أنّ مُحَمَّدًا قد يكون تعلمه بوحي من الله تهرّب من مناقشة هذه الفكرة؛ لأنّ مجرد إيرادها يلزمه أن يؤمن بأنّ القرآن وحي من عند الله بواسطة جبريل؛ لأنّ الذي يستطيع أن يُعلم رسوله وحياً لا يُعجزه أن يُوحى إليه بكتاب مُنزل من السّماء؛ ولكنّه التّعنت والإصرار والمغالطة!!

### هل سقط شيء من القرآن عند جمعه؟!

يُورد في صفحات مُتعدّدة قضية جُنع القرآن، والمراحل التي مرّ بها، ويُحمّل الخليفة الرّاشد عُثمان بن عفّان «رضي الله عنه» مسؤولية إسقاط الكثير من القرآن، بل يتّهمه بحرقه اعتماداً على روايات ضعيفة، بل موضوعة؛ يقول:

«... ظاهر عبارة الحديث يدلّ صراحةً على أنّ عُثمان لما استنسخ المصاحف من مصحف حفصة قد ترك شيئاً من القرآن، فلم يكتبه في المصاحف، وأنّه أمر بإحراقه. ويؤيّد هذا روايات أُخرى جاءت في كُتُب السّير، وغيرها من كُتُب القوم»<sup>(1)</sup>.

ثمّ يُورد هذه الرواية الغريبة نقلاً عن الإنّقان، وهو يستكلم عن النّاسخ والمنسوخ، يقول: «قال أبو عبيدة إسماعيل بن إبراهيم، عن أثوب بن نافع، عن ابن عمر، قال: "ليقولنّ قد أخذت القرآن كلّهُ، وما يُدرّيه ما كلّهُ، فقد ذهب قرآن كثير، ولكنّ؛ ليقلّ: قد أخذت منه ما ظهر...".

(1) المرجع نفسه؛ ص 577.

إِنَّ عُثْمَانَ لَمْ يَكْتَفِ بِإِحْرَاقِ مَا أَشَقَطَهُ مِنَ الْقُرْآنِ، بَلْ مَنَعَ قِرَاءَتَهُ أَيْضاً، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ...»، ويسوق روايات ضعيفة مدسوسة هي - في الأغلب الأعم - من عمل اليهود أعداء الإسلام.

ونجده يعتمد الروايات الموضوعة؛ حيث يقول: «قال أبو عبيدة: حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي حَرْبٍ بْنِ أَبِي الْأَسْوَدِ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: «نَزَلَتْ سُورَةٌ نَحْوُ بَرَاءَةٍ، ثُمَّ رُفِعَتْ، وَحُفِظَ مِنْهَا: إِنَّ اللَّهَ سَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلْقَ لَهُمْ، وَلَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ وَادِئِينَ مِنْ مَالٍ لَتَمَنَّى وَادِئاً ثَالِثاً، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ.»

نمَّا يَدُلُّ عَلَى أَثَرِ الصَّنْعَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ - وَلَا سِيَّامَا فِي شَطْرِهِ الْأَوَّلِ - لُغَتُهُ الضَّعِيفَةُ؛ حَيْثُ اسْتُخْدِمَ كَلِمَةُ "لَا خَلْقَ" لَهُمْ، وَهُوَ يُرِيدُ "لَا أَخْلَاقَ" لَهُمْ؛ إِذْ لَيْسَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ خَلْقٌ بِمَعْنَى الْأَخْلَاقِ، وَإِنَّمَا الْخَلْقُ - كَمَا هُوَ فِي الْقُرْآنِ - مَعْنَاهُ النَّصِيبُ وَالْحِظُّ؛ كَمَا تُفَسِّرُهُ آيَةٌ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾.

وقد وقع حافظ إبراهيم - الشاعر المصري المعروف، وهو مُعاصر للرّصافي - في الخطأ نفسه؛ حيث يقول:

لَا تَحْسِبَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ مَا لَمْ يُتَوَجَّ رَبُّهُ بِخَلْقِ

ومن تناقضاته العجيبة - وهو يعتمد الروايات الضعيفة - قوله:

«...فمن هذه الروايات نعلم أنَّ القرآن قد أُسقط منه شيء لا يُستهان بكثرته، كما تقدَّم في حديث ابن عمر: "قد ذهب منه قرآن كثير". ونعلم - أيضاً - أنَّ الذي أُسقط منه لم يكن كُله مُسقطاً بعد وفاة النبي عندما أمر عُثمان باستنساخ المصاحف، بل منه ما أُسقط وهو حيُّ يُوحى إليه...» (1).

لسنا في حاجة إلى أن نُعلّق على القضية التي أثارها - هنا - بأنَّ الرسول ﷺ قد أسقط كثيراً من القرآن، وإنَّما نُحبُّ أن نقف عند قوله: "وهو حيُّ يُوحى إليه"، ويعني الرسول ﷺ. إنَّ هذه الفقرة: "وهو حيُّ يُوحى إليه" تنسِفُ كُلَّ بنائه المتهاوي المتهالك من أنَّ القرآن من تأليف مُحَمَّد ﷺ، وإنكاره الوحي إلا بالإلهام.

وللسؤال: كيف يُقرُّ بأنَّ مُحَمَّدًا كان يُوحى إليه، ولا يعترف بأنَّ القرآن يكون من ضمن ما يُوحى إلى الرسول ﷺ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٢) إنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿، ولكنَّ العناد والمغالطة والإصرار مرَّةً أُخرى.

### هل القرآن مُنزل من السماء؟

بعد أن يُقدِّم تمهيداً طويلاً لمعنى الإنزال، وأنَّه - بالنسبة لنا - شيء نسبي، لا يعدو كونه أمراً مُتوهماً، لأنَّه لا علو، ولا سفل، ويُطيل الكلام في فلسفة عقيمة لا طائل تحتها، وينتهي إلى القول: فمعنى قولنا إنَّ الله أنزل القرآن على النبي مُحَمَّد ﷺ أنَّه أُلهم معانيه، ثُمَّ عبَّر النبي عن تلك المعاني بالفاظ غريبة، وقرأها على النَّاس، ولا ينبغي للمؤمن بالله حقَّ الإيمان، إنَّ

(1) المرجع نفسه؛ ص 582.

كان مُحْتَرِماً للعقل، ومُخْلِصاً في الإيمان، أن يخرج بإنزال القرآن عن حَدِّ هذا المعنى»<sup>(1)</sup>.

ويرفض المؤلف أقوال العلماء الذين يذهبون هذا المذهب مُستنديين إلى أحاديث رواها ابن عَبَّاس، ويتَّهم كُلَّ مَنْ قال بهذا الرَّأي بالغفلة والسَّذاجة قائلاً:

«أَمَّا نحنُ؛ فنقول لك إنَّ كُلَّ ما أخرجه الحاكم والبيهقي والطَّبْراني واليزَار وابن أبي شيبة وغيرهم من الأحاديث المروية عن ابن عَبَّاس في هذه المسألة ليس إلَّا كلاماً قاله ابن عَبَّاس، ولم يرفعه إلى النَّبي مُحَمَّد ﷺ».

«...نحنُ لا نستطيع أن نحكم بصحَّة ما قاله ابن عَبَّاس؛ لأنَّه يُخالِف القرآن أولاً؛ لأنَّ القرآن صرَّح بأنَّه أنزل مُفَرَّقاً، لا مُجَمَّلاً واحدة. ثانياً؛ لأنَّ الكُفَّار قالوا لمُحَمَّد ﷺ: لماذا لم يُنزل عليك القرآن مُجَمَّلاً واحدة كما أنزلت التَّوراة والإنجيل؟ فأجابهم بحكمة إنزاله مُفَرَّقاً».

وبعد أن يستعرض آراء العلماء، يتَّهي إلى القول:

«إنَّ القرآن لم ينزل مُجَمَّلاً واحدة إلى السَّماء الدُّنيا، وإنَّها ابتدئ إنزاله في ليلة القَدَر، ثُمَّ أنزل - بعد ذلك - مُنْجِماً؛ أي مُفَرَّقاً في أوقات مُختلفة من سائر الأوقات، وبهذا القول قال الشَّعبي، فهنيئاً للشَّعبي أنَّه لم نغمه غفلة ابن عَبَّاس فيما غمَّت فيه غيره من الأوهام... فيا لها من غفلة جرَّت غفلات،

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 583.



وهفوة جرّت هفوات، ولأجل أن نعلم أن هؤلاء إذا تكلموا في أمور دينهم تكون عُقُوبُهُمْ مُعَمَّاةٌ بنوع من العمى التقليدي».

هكذا دأب الرّصافي، لا يسلم من لسانه أحد، فهو الأعلم، وغيره - الذين يُخالفونه الرّأي - جهلاء، وأهل غفلة، ولا عقل لهم... إلى آخر هذه الألفاظ العنيفة، التي يكتنّز بها قاموس الرّصافي، على أنّه - رغم ذلك - وهو يدّعي المنطق والعقل والتّدبّر، لم يسلم عقله من التناقض العجيب الغريب لأنّه ما فتى أن قال:

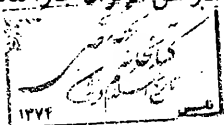
«... والخلاصة هي أن الصّحيح الذي يُوافق القرآن، ويُساير المعقول، وينطبق على الواقع، هو أن القرآن كان - ابتداءً - نُزُوله في ليلة القدر على الوجه الذي تقدّم بيانه في بدء الوحي والخلوة في حراء، ثمّ إنّه استمرّ متفرّقاً، في عشرين، أو ثلاث وعشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة، على حسب الخلاف في مُدّة إقامة النّبّي بمكّة بعد البعثة»<sup>(1)</sup>.

يا لله من تفكير هذا الرّجل وعقله، ما فتى يقول إنّ القرآن من تأليف مُحمّد، وإنّه فعل ذلك عن تفكير وتخطيط، ثمّ ما لبث أن يقول إنّه إلهام من الله بمعانيه، ولكنّ اللفظ لمُحمّد ﷺ، ثمّ يصرّح - هنا - بأنّ ابتداء نُزُوله كان في غار حراء في ليلة القدر!!!... فبأي رأي يأخذ؟! وما هذا التّخبط والتناقض؟!

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 592.

وكأنِّي بالرّصافي قد نسي أنَّهُ قال في صفحة 587 في هذه المسألة ما يأتي: «... إنَّ خلاصة ما قلناه - فيما تقدّم - هو أنَّ القرآن عبارة عن المعاني دون الألفاظ، وأنَّ الإنزال معناه الإلهام، وإنَّما عبَّر عن الإنزال مجازاً لتعظيم النزل؛ أي المُلهم».



### ما معنى الكتاب؟

لا شك أنَّ الرّصافي توجَّه آيات مُحْكَمَة تنقض كُلَّ ما ادَّعاه من نظريَّات في هذا السَّيل، ولنا أن نستشهد بآية واحدة: وهي قوله تعالى:

﴿ حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ ﴾ (١).

ولكنَّ الرّصافي يتمحَّل، ويتملَّص بتأويلات عجبية، كأنَّ يُفسِّر الكتاب بمعنى القضاء ليس إلَّا! والعجيب في المرء يقع في خطأ منهجي صارخ، حين يعتمد على تفسير لفظة الكتاب على القرآن، الذي يقول إنَّه من تأليف مُحَمَّد ﷺ.

وهو - إذا أراد أن يحتجَّ إلى ما يذهب إليه من آراء - نراه يحتجُّ بالقرآن، ويستشهد بها جاء فيه. فإدام اللفظ من مُحَمَّد ﷺ - كما يدَّعي، ويزعم - فكيف يصحُّ الاحتجاج به؟! وكيف يصحُّ الاستشهاد بمحتوياته؟! يقول: «فالكتاب في هذه الآيات لا معنى له سوى قضاء الله في الأزل، وإنَّ ما سمَّاه كتاباً؛ لا لأنَّ معنى الكتاب من أصل اللُّغة الضُّبط

(1) سورة فُصِّلَتْ؛ الآية 1-4.

والجَمْع، كما مرَّ آنفاً، والكائنات بأسرها مضبوطة في قضاء الله وإرادته، فهو - أي قضاء الله - بمنزلة الكتاب الذي كُتِبَتْ فيه الألفاظ والحُرُوف؛ أي جُمِعَتْ، وَضُبِطَتْ لكي لا تُنْسَى، ولا تضيع. أمَّا وَصَف هذا الكتاب بأنَّه محفوظ أو مكنون - أي مصون -؛ فلائِه لا يقبل التَّبدِيل والتَّغْيِير؛ فهو مُنَزَّه من أن تناله يد شيء من ذلك»<sup>(1)</sup>.

ولا أحسب أن القارئ في حاجة إلى أن نُوضِّح له ما في هذا الرَّأي من تهاوت ومراوغة وتناقض، ولعلَّ الرِّصافي عندما يشعر بموقف ضعيف كهذا يلجأ إلى السُّخرية والتَّهكُّم؛ يُعْطِي بهما تهاوته وسطحيتَه، كأن يقول مثلاً في مُناقشة قضية اللُّوح المحفوظ، التي يقول بعض العلماء بأنَّ التَّنْزِيل الأوَّل للقرآن كان من اللُّوح المحفوظ إلى السَّماء الدُّنيا، يقول مُعلِّقاً: «... وما أدري أيُّ فضل للقرآن في كونه مكتوباً في اللُّوح المحفوظ، وقد كُتِب فيه كُلُّ كائن يكون، حتَّى الحُمير، ونهبها. فُسبحان واهب العُقُول، ومُعَمِّها»<sup>(2)</sup>.

والحقُّ أنَّ المؤلِّف يتفوق تفوقاً بارزاً بسلطة لسانه، وسُخرية كلامه، الذي لم يسلم منه ربُّ العزَّة، فكيف بالعلماء الأجلَّاء، الذين اتَّهمهم بالزُّبَّان والنِّفاق، وكأنَّه مُطَّلِع على القُلُوب، أو لم يقلَّ عن الباقلائي وكتابه إعجاز القرآن: «... كُلُّ مَنْ طالَعَهُ يَرْوِّ، وقرأه يتدبَّر وإمعان، أيقن أنَّ مؤلِّفه من

(1) المرجع نفسه؛ ص 594.

(2) المرجع نفسه؛ ص 599.

الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ مِنَ السُّرَّائِينَ، وَأَنَّهُ - بِتَأْلِيْفِهِ - مِنْ طُلَّابِ الدُّنْيَا، لَا مِنْ طُلَّابِ الْحَقِيقَةِ» (1).

ولا يقف عند هذا الحدُّ؛ أي عند قلب الباقلائي المسكين، وإنَّما يتجاوزه إلى كُلِّ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَتَبُوا عَنْ إعْجَازِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ فِكْرَهُمْ لَمْ يَرْفُقْهُ. هَكَذَا بِالتَّعْمِيمِ الْمُطْلَقِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: «قُلْنَا إِنَّ الَّذِينَ كَتَبُوا فِي إعْجَازِ الْقُرْآنِ لَمْ يَتَكَلَّمُوا عَنْ تَدَبُّرٍ وَتَفَكُّيرٍ، وَلَمْ يَكُونُوا أَحْرَاراً فِي تَفَكُّيرِهِمْ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمُوا عَنْ إِيْمَانٍ وَاعْتِقَادٍ، وَذَلِكَ وَحْدَهُ كَافٍ لَانْحِيَازِهِمْ إِلَى الْقُرْآنِ، زِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مِنْهُمْ الْمُخْلِصَ فِي إِيْمَانِهِ، وَمِنْهُمْ غَيْرَ الْمُخْلِصِ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ الْمُخْلِصِ مُنْدَفِعاً إِلَى كِتَابَةِ مَا كَتَبَهُ بِدَافِعِ الرِّيَاءِ، إِنَّمَا لِنَيْلِ مَنْصَبٍ يَعْلَمُو بِهِ، وَإِنَّمَا لَشُهْرَةٍ يَكْبُرُ بِهَا، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ نَمَّا تَتَطَلَّبُهُ مَصْلَحَتُهُ الذَّائِيَّةُ فِي مُحِيطٍ، كُلُّ مَا فِيهِ قَائِمٌ بِاسْمِ الدِّينِ...».

نقول: إِنَّ التَّعْلِيْقَ بِالْكَلِمَاتِ لَا يَكْفِي لِإِظْهَارِ مَا فِي هَذَا الْمَوْقِفِ مِنْ تَجَاوُزٍ وَانْفِلَاتٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ مُحَلِّلِ نَفْسِي، لَهُ خَبْرَةٌ بِالنُّفُوسِ وَالْعُقَدِ الَّتِي تَنْحَكِمُ فِيهَا؛ إِذْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصْدُرَ هَذَا الْكَلَامُ إِلَّا مِنْ إِنْسَانٍ يُكِنُّ عِدَاءً سَافِراً لِلدِّينِ وَالتُّدَيِّينِ، وَلَهُ تَقَلُّبَاتٌ فِكْرِيَّةٌ مَعْرُوفَةٌ طَوَالَ حَيَاتِهِ، مِثْلُ مُؤَلِّفِ الْكِتَابِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُؤَلِّفَ كَانَ يَتَّخِذُ مَوْقِفاً مُنْحَازاً لِلْفِكْرِ الْمَعَارِضِ الْمُتَمَرِّدِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْفِكْرُ مَفْقُوداً، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ خِلَالِ مَا قِيلَ فِي فَهَارِسِ

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 600.

الكتب، كما جاء ذلك في مثل قوله، وهو يتحامل على ابن هشام وسيرته  
تحملاً واضحاً:

«... إن ابن هشام صاحب السيرة المشهورة قد جنى على العلم  
والأدب جناية كبرى، باختصاره سيرة ابن إسحاق، فإنه لم يختصرها،  
بل قتلها قتلاً وحشياً، فلم يبق منها إلا الاسم، فَقِدَتْ سيرة ابن إسحاق،  
التي كتبها مطوّلة، والتي اختصرها بأمر المنصور، فلا يوجد - اليوم - لها أثر،  
فيا أسفاً على ما أصيب به العلم من فقدها!»<sup>(1)</sup>:

إننا نتساءل في عجب: بما أن سيرة ابن إسحاق مفقودة، وليس لها  
أثر، فكيف علم أن ابن هشام قتلها قتلاً وحشياً؟ وكيف ساع له أن يُصدر  
حكمه القاضي على ابن هشام المسكين بأنه جنى جناية كبرى على العلم؟  
والمناطقة تقول: الحكم على الشيء فرع عن تصوره!!

### هل القرآن معجز؟

منذ البداية؛ يُهاجم العلماء الذين كتبوا عن إعجاز القرآن، وعلى  
رأسهم الباقلاني، لا لشيء إلا لأنهم كتبوا - حسب زعمه - «عن إيمان  
واعتقاد، لا عن تدبر وتفكير... ولذا تراهم بما قالوه، وادّعوه، مُبالغين في  
إعظام القرآن، ومُفرطين فيما يدّعون من إعجازه، كما تراهم جعلوا كُلَّ  
ما فيه الذروة العليا من البلاغة والفصاحة، واتَّخذوه المقياس الأعلى، الذي  
تُقاس به درجات البلاغة»<sup>(2)</sup>.

(1) المرجع نفسه؛ ص 501.

(2) المرجع نفسه؛ ص 599.

نراه في هذه القضية يُردّد آراء المُستشرقين ودعاواهم المُعادِيّة للإسلام والقرآن، إلى حَدِّ اتِّهام الإسلام أَنَّهُ إِنَّمَا انتشر بالسِّيف، لا بمُعجزة القرآن: «... الحقيقة الناصعة، التي لا غُبار عليها، والتي لا يمتري فيها إنسان، ولا ينتطح عنزان، هي أَنَّ الدَّعوة الإسلاميّة قامت بالسُّيوف المُرهفات، لا بمُعجزة القرآن، ولا بغيرها من المُعجزات، وأكبر دليل على ذلك ارتداد العرب عن الإسلام بعد وفاة مُحَمَّد<sup>(1)</sup>».

ويستشهد بيت للمعري، وهو الشَّاك المُتردّد مثله؛ حيث يقول: «جلوا صارماً، وتلوا باطلاً، وقالوا: صدقنا، فقلنا: نعم»<sup>(2)</sup>.

ولم يسلم من تناقضه العجيب في هذه المسألة التي نرى موقفه المُعادي فيها واضحاً؛ حيث يقول - مُعلّقاً على قوله تعالى - ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾، يقول مُعلّقاً:

«...وأَيُّ كلام أبلغ من هذا الكلام، الذي معناه إلى النَّفس أسبق من لفظه إلى السَّجع؟! وهل البلاغة شيء غير هذا؟!...».

ولكنّه لا يلبث أن يراجع عن قوله السَّابِق إلى القول بأنَّ الآيات القرآنيّة ليست كُلُّها بليغة مُعجزة... أي ليست كُلُّها في الدَّروة العُلَيّا من البلاغة... بل يقع بينها التفاضل، فمنها الأعلَى، ومنها الأوسط، ومنها

(1) المرجع نفسه؛ ص 608.

(2) المرجع نفسه؛ ص 614.

ما دُون ذلك... ويستشهد مُقارناً بين آيتين، يدَّعي أنَّ أوَّلها في الحضيض من  
 البلاغة، وهي قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَلَىٰ لَهُبٍ وَتَبَّ ۚ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:  
 ﴿ وَقِيلَ يَتَّزِقُ أَتْلَعِي مَاءً لَّكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ أَلْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ  
 وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۖ ... ۚ » .

فيا سُبْحان الله! كيف استطاع الرِّصافي أن يملك هذه الأداة الدَّقيقة  
 التي يقيس بها بلاغة الآيات، فيضع هذه الآية في الدَّروة، وهذه في الأوسط،  
 وهذه في الأسفل كما يدَّعي؟! على أنَّه لم يُبيِّن لنا لماذا يضع هذه، ويرفع  
 تلك!!.

وإذا كان المقياس هو الإفهام كما يدَّعي: «... الإفهام هو المحور  
 الذي يدور عليه فلكُ البلاغة، والكلام يبعد عن البلاغة قَدْرُ بُعده عن فُهم  
 المخاطب، ويقرب منها قَدْرُ قُرْبِهِ منه، ولا يُباري في هذا إلا مُعاند»<sup>(1)</sup>.

ونتساءل مُتعبِّجين: أليست آية: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَلَىٰ لَهُبٍ وَتَبَّ ۚ وَمَا  
 أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ مِنْ أَوْضَحِ الْآيَاتِ فَهَمًّا، ومقصداً، وبلاغةً،  
 وتأثيراً، يفهمها الخاصُّ والعامُّ؛ المتضلِّع في العلم، والمبتدئ فيه؟!

والرِّصافي يذهب في تنطُّعه هذا إلى أبعد حدٍّ حين يدَّعي أنَّ في القرآن  
 من الآيات «ما لا يتماشى مع البلاغة، بل فيها ما لا يتماشى بظاهره مع  
 المعقول»<sup>(2)</sup>.

(1) المرجع نفسه؛ ص 676 .

(2) المرجع نفسه؛ ص 676 .

وَيَدَّعِي بِأَنَّ الْقُرْآنَ نَفْسَهُ يُصَرِّحُ بِذَلِكَ؛ حَيْثُ يَقُولُ إِنَّ فِيهِ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٍ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ غَرِيبٌ لِلْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ.

وَلأنَّه اعتاد أن يتهرَّب من التحليل كُلِّها وجد رأياً لا يُوافقه في مذهبه من بشرية القرآن، يقول:

«... ولا حاجة أن نذكر لك اختلاف أقوال العلماء في المتشابه، وما هو المراد به في القرآن، فإنَّ القرآن عَرَبِيٌّ، وقد استعمل هذه الكلمة بمعناها اللُّغوي العام، وليس هناك ما يُضطرُّنا إلى الخروج عن معناها العربي المعلوم...»<sup>(1)</sup>.

ثُمَّ يُجْهِد نفسه في إيراد أمثلة كثيرة من القرآن الكريم، يزعم أنَّها ليست بليغة لما فيها من غُمُوض في تفسيرها، وتأويلها، والوصول إلى مُبتغاها، ويُلاحق الرَّخِشِي ملاحقة لاهثة في تفسيره لتلك الآيات، ويتَّهمه بالتمحُّل والتكلف، لا لشيء إلاَّ لأنَّه حاول أن يُفسِّر تلك الآيات، التي تبدو له غامضة مُبهمة<sup>(2)</sup>.

وبما أنَّ المجال لا يسمح بإيراد كُلِّ تلك الأمثلة، ومناقشتها، والرِّدَّة عليها، فإنَّنا نكتفي بمثال واحد، يُمكن اعتباره نموذجاً لأسلوب الرِّصافي في المغالطة والتمحُّل؛ حيثُ يقول: «... في سورة القصص قوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ

(1) المرجع نفسه؛ ص 617.

(2) المرجع نفسه؛ ص 616 - 642.



إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٦٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٣﴾ يقول: إِنَّ المعنى في هاتين الآيتين غير مُتَّجِه إلى وجه معقول ومُسْتَقِيم في الخطاب، وذلك أَنَّ جعلَ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إلى يوم القيامة لا يكون إِلَّا بِنَقْضِ الشَّمْسِ، وانطفائها، وإذا انتقضت الشَّمْسُ انتقضَ العالم الشمسي بأجمعه، فلا تبقى أرضنا، ولا غيرها من سائر السَّيَّارات، ولا يبقى كافر، ولا مؤمن، حتَّى يُقال لهم: مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ؟! وكذلك القول في جعلِ النَّهَارِ سَرْمَدًا، فَإِنَّه لا يكون إِلَّا بِوُقُوفِ الأرض عن دورانها على محورها، وعندئذ: يكون النَّهَارُ سَرْمَدًا في قسم منها، واللَّيْلُ سَرْمَدًا في القسم الآخر.

لا ريب أَنَّ وُقُوفَ الأرض عن دورانها لا معنى له سوى زوالها، وفناؤها، فما معنى قوله إذن: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟!

وما الدَّاعِي إلى بناء الكلام على أمر محال يُفَرَّضُ فَرَضًا، وقد علمنا بأنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ لا تتعلَّقُ بِالْمُحَالِ، وَأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ لا تقبل التَّبدِيلَ والتَّغْيِيرَ؟! (١).

من الواضح الجليَّ كيف يتمحَّل في التلَفِيقِ والدَّوْرانِ؛ حيث يفرض أشياء لا يُمكن التَّسْلِيمُ بها، ويتَّخذها قاعدة لحُجْجِه التي يأتي بها؛ مثل

(١) المرجع نفسه؛ ص 620.

قوله: "وقد علمنا أَنَّ قُدرة الله لا تتعلَّق بمُحال"، وبهذا؛ يُوهم القارئ بصحَّة دعواه، وصواب رأيه.

**أولاً-** مَنْ قال إِنَّ قُدرة الله لا تتعلَّق بمُحال؟ والله يقول في كتابه مرَّات عديدة: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والواقع يُصرِّح بأنَّ الله يقول للشيء ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾، وقُدرة ليس لها حدٌّ، ولا نهاية، رغم ادِّعاء عُلماء الكلام وإجماعهم، كما يزعم الرِّصافي .

**ثانياً-** إِنَّ القرآن حينما نزل، نزل على أقوام لم يدرسوا الجغرافيا، ولا عُلوم الفيزياء، ولا الفلك، فخطبهم بقَدْر ما يفهمون، وبالأُسْلُوب الذي يُدركون، في أُمُور فَلَكِيَّة عميقة، ما يزال العلم الحديث يكتشف أسرارها... فقدَّم لهم ذلك المثال الرَّائع، الذي يُحسُّونه، ويلمسونه ليل نهار من آتِي اللَّيْلِ والنَّهار، والبلاغة كما يقول الرِّصافي نفسه أَنَّ تُخاطب النَّاسَ بها يفهمون. فلماذا يستكثر على القرآن ما يجعله مبداً لنفسه؟!

**ثالثاً-** ليس من الضَّروري أَنْ يكون المثال الذي يسوقه الله للنَّاس واقِعاً ملموساً، ماداموا يمتلكون قُوَّة التَّخَيُّل التي لا يحدُّها حدٌّ!!

ثُمَّ مَنْ قال إِنَّ الله سيسأل النَّاس بعد فناء اللَّيْلِ والنَّهار حقيقة؛ لأنَّه لا يبقى مؤمن، ولا كافر - حسب ادِّعاء الرِّصافي -: لَأَنَّ السُّؤال - بكُلِّ بساطة - يتكلَّم عن الحال المُتوقَّع بعد وقُوعه، مُقارنة مع الحاضر الذي هُم فيه، فكلُّ إنسان ولو كان بسيطاً، باستطاعته أَنْ يُدرك نعمة الله الكُبرى عليه

من آتَيْهِ اللَّيْلُ وَالتَّهَارُ، وَأَتَتْهَا مِنْ قُدْرَةِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ، وَلَا يُبَارِي فِي ذَلِكَ إِلَّا مُلْحَدٌ، أَوْ كَافِرٌ، أَوْ جَا حِدٌ.

### أَسْلُوبُ التَّهْكُمِ وَالشُّخْرِيَّةِ مِنَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ :

إِنَّ التَّطَاوُلَ عَلَى الْمُقَدَّسَاتِ سَمَةٌ مِنَ السَّمَاتِ الصَّارِخَةِ هَذَا الْبَحْثِ، فَإِنَّ الَّذِي يَتَطَاوَلُ عَلَى اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - لَا يَتَوَرَّعُ عَنِ التَّطَاوُلِ عَلَى شَخْصِيَّةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ، وَالتَّيْلِ مِنْهُ، وَمِنْ كِتَابِهِ، بِأَسْلُوبٍ سَاخِرٍ فَاجِرٍ، وَلِنَأْخُذَ هَذَا، الْمَثَالَ مِنْ صَفْحَةِ 631؛ حَيْثُ يَقُولُ:

«... مِنَ الْقَصَصِ الْقُرْآنِيَّةِ قِصَّةُ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ أَحَدِ مُلُوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْيَهُودُ: سُلَيْمَانَ الْمَلِكِ، وَلَمْ يَقُولُوا إِنَّهُ نَبِيٌّ، وَلَمْ يَذْكُرُوهُ فِي أَنْبِيَائِهِمْ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا قَدْ جَمَعَ لَهُ بَيْنَ الْمُلْكِ وَالنَّبُوءَةِ كَالْجَمْعِ بَيْنَ الضَّدِّينَ، وَجَاءَ عَلَيْهِ مِنْهَا بِمَا جَاءَ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْغَرَائِبِ مَا فِيهِ، وَصَوَّرَ مُلْكَهُ فِي الْقُرْآنِ تَصْوِيرًا خَيَالِيًّا، فَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ تَعْمَلُهُ حَيْثُ أَرَادَ، وَأَدْخَلَ فِي طَاعَتِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ مَنْ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ، وَجَنَّدَ لَهُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالطَّيْرِ جُنُودًا تَقْهَرُ عَدُوَّهُ، وَتُظْفِرُهُ بِمَا أَحَبَّ، وَذَكَرَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ قِصَّةَ خَيَالِيَّةٍ مَعَ الْهَذْهَدِ...».

إِنَّ أَسْلُوبَ التَّهْكُمِ وَالشُّخْرِيَّةِ مِنَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ ظَاهِرٌ بَادٍ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْلِيْقٍ، وَلَكِنَّ التَّنَاقُضَ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ الرَّصَافِي - بَعْدَ هَذَا الْعَرَضِ السَّخِيفِ - أَمْرٌ يَدْعُو إِلَى الْعَجَبِ؛ حَيْثُ يَقُولُ:

«... والذي نراه في مغزى هذه القصة الخيالية هو أنها لم تُؤلف، ولم تُزوَّ إلا لأمر واحد، وهو تصوير ما للعلم من قدرة خارقة للعادة، وها نحنُ - اليوم - نرى للعلم من المعجزات ما لا يُقَلُّ عن الإتيان بعرش بلقيس، في مُدة كلَّمَح البصر، فنسمع المُتكلِّم في لندن ونحنُ في بغداد، وإذا تمَّ بُلُوغ التلفزيون رُشدَهُ نراه - أيضاً - كما نسمعه، إلى غير ذلك من مُعجزات العلم، التي يطول الكلام بتعدادها».

كيف جاز للرّصافي أن يعتبر ما جاء في القرآن الكريم عن النّبيّ سُلَيْمَانَ مع الهُدُود وبلقيس، وإتيان العرش في لمح البصر، قصةً خياليةً من تأليف مُحَمَّد ﷺ - حسب زعمه -، ثُمَّ ما يلبث أن يعترف بأنّ المغزى من هذه القصة هو إظهار ما للعلم من قدرات فائقة، ومُعجزات باهرة، وذلك ما أكّده العلم الحديث في وقتنا الرّاهن، فمن أين استطاع مُحَمَّد - وهو الأُمِّي الذي لا يعرف القراءة والكتابة - أن يتنبأ بهذا المدى الذي سيصل إليه العلم من المُعجزات الخوارق مُشاهدة في السّماء والأرض.

أليس في رأي الرّصافي هذا ما فيه من تناقض عجيب؟! وكيف أنطقه الله بهذه الحقيقة وهو لا يُريد الاعتراف بها؟! أليس في هذا سرٌّ إلهي يدلُّ على قدرة الله وعظَمته: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ سبحان الله!!

## تطاول على الله واتهام القرآن بالمغالطة:

مِنْ تطاوله على الله - سبحانه وتعالى - اتّهامه القرآن بالمغالطة والابتذال وسوء التعبير... وغير ذلك من النُّعوت التي يقشعُرها جلد المؤمن، وينقبض بها قلبه، وهي - في الحقيقة - نُعوت لا تلتصق إلا بكلامه، ولا تُجسّد إلا فكره، ولا تصف إلا رؤيته، ومن ذلك ما جاء في ص: 636؛ حيث يقول:

«... من الكلام ما لا يليق أن يقوله إلا الله، ومنه ما لا يليق أن يقوله الله، ولا يليق أن يُقال عن الله، وكلا هَذَيْنِ النوعَيْنِ موجود في القرآن... ومن هذا القبيل ما جاء في سورة الأعراف: ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾، فيه من سوء التعبير أيضاً، فإنَّ إضافة الناقة إلى الله قول لا يستسيغه الذوق السليم، خصوصاً في كتاب مُعجز مثل القرآن، ومن العجيب أن الرَّخْشَري قال: "ولأنها أُضيفت إلى اسم الله تعظيماً لها، وتفخياً لشأنها"، وفاته أن في تعظيمها بالإضافة لله استهانة بعظمة الله، وخروجاً من التأدّب في الكلام عن الله، وكان يُمكنه أن يقول: "هذه الناقة لكم آية الله." فيكون - بجعلها آية الله - قد عظّمها، وضعّم شأنها، بعبارة خالية من سوء التعبير...».

إنَّ الرّصافي - الذي درس البلاغة وعلم أسرار اللّغة العربيّة، وكان أستاذاً مُبرّزاً عدّة سنوات - يُغالط نفسه - هنا - مُغالطة واضحة فاضحة؛ لأنَّ أبسط تلامذة البلاغة يعرفون المحذوفات والمُقَدَّرات في اللّغة العربيّة، وهي دلالة على حُسن الكلام، لا على سُوءه كما يدّعي.

ومن وقاحات الرّصافي اتّهام القرآن بالمغالطة؛ حيث يقول - تعليقاً على قوله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَبِّرٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَسٍ وَزَرْعٌ

وَنَحِيلٌ صِتْوَانٌ وَعَبْرٌ صِتْوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَتُقْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴿ - .... إِنَّ الْأَشْجَارَ الثَّابِتَةَ فِي الْأَرْضِ لَا تَنْغَدِي <sup>(1)</sup> بِالْمَاءِ وَحِدِهِ، وَإِنَّمَا الْمَاءُ وَاسِطَةٌ لِلْإِمْتِصَاصِ، فَهِيَ بِوَاسِطَةِ الْمَاءِ تَحْتَصُّ الْمَوَادَّ الْمُغَذِّيةَ لَهَا مِنْ تَرَبَةِ الْأَرْضِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَشْجَارَ مُخْتَلِفَةً فِي بُدُورِهَا، وَفِي طِبَائِعِهَا، وَخَوَاصِّهَا، وَفِي تَرَاكِيِبِهَا الْعُنْصُرِيَّةِ <sup>(2)</sup> .

فَهُوَ يَتَّهَمُ الْقُرْآنَ بِالْمُغَالَطَةِ، وَهُوَ الْمُغَالَطُ، وَيَطْلُبُ مِنَ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ مُعَلِّمًا لِمَادَّتِي الْكِيمْيَاءِ وَالزَّرَاعَةِ، يُفَصِّلُ الْجُزْئِيَّاتِ، وَيَقِفُ عِنْدَ التَّفَاصِيلِ، وَتَجَاهِلُ مَا فِي ذَلِكَ التَّعْبِيرِ الرَّائِعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ صِتْوَانٌ وَعَبْرٌ صِتْوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ ﴾ مِنْ بِلَاغَةٍ وَفَصَاحَةٍ وَتَأْثِيرٍ، لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا الْخَالِقُ الْعَظِيمُ الْمُبْدِعُ الْكَرِيمُ.

وَيَتَّهَمُ الْقُرْآنَ بِالْإِبْتِذَالِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: «... وَفِي سُورَةِ هُودٍ قَوْلُهُ: ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَنِّطِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ ﴾ .

إِنَّ الْمُتَكَلِّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ اللَّهُ، وَالْمُخَاطَبُ نُوحٌ، وَالْمُرَادُ بِهَلَاكِهِمْ بِالطُّوفَانِ هُمُ الْكُفَّارُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَالْمَقَامُ مَقَامُ غَضَبٍ وَعَظَمَةٍ وَجَبْرُوتٍ، فَلَا تُنَاسِبُهُ عِبَارَةُ ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، فَإِنَّهَا عِبَارَةٌ مُبْتَدَلَةٌ،

(1) انظر إلى مُغَالَطَةِ الرِّصَانِي فِي اسْتِعْمَالِ كَلِمَةِ "تَنْغَدِي"، غَيْرَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ قَالَ: "تُسْقَى"، وَغَنِيٌّ عَنِ الْبَيَانِ أَنَّ الْمَعْنَى لَيْسَ وَاحِدًا، غَيْرَ أَنَّهُ بِالْإِلْتِمَاءِ فِي الْكَلِمَاتِ، يُغَالَطُ الْحَقِيقَةُ، وَيُحَادَلُ اسْتِعْمَالُ الْقَارِئِ الْبَسِيطِ إِلَى الْخَطَا وَالْخَطَلِ.

(2) المرجع نفسه؛ ص 640.

لا يستسيغها الذوق في مثل هذا المقام، فكان الأنسب أن يقول: بحفظنا وكلاءتنا، وأمرنا، أو نحو ذلك. " (1).

هكذا يتناول على الله جلّ جلاله، ويصف كلامه بالابتدال، دون حياء، أو خجل، وهو يدري فجاجة ما ذهب إليه من ضحالة في الرأي، وسقامة في الذوق، فأين قوله المتهافت بحفظنا، أو غير ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وكأنه لم يدرك ما في لفظة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ من محبة وتقدير وحنو ورعاية من الله لعبده ونبئه نوح. وما الذي يضير أن يكون الله كذلك مع نبئه في لحظة هو أشد ما يكون فيها إلى عون الله وتوفيقه ونصرته وتأييده؟!

### المُحَكَّم والمتشابه:

يتساءل الرصافي عن السبب في جعل القرآن مُحَكَّمًا ومتشابهًا؟  
ونجيب عن هذا التساؤل بتعليل غريب عجيب، مُنطلقاً - في ذلك - من فكرته بأن القرآن إنما هو من تأليف الرسول مُحَمَّد ﷺ، مُعللاً اختيار النبي هذا الأسلوب؛ لأنه يتماشى مع طبيعة الدين الإسلامي، الذي يؤمن تابعوه بالغيب، ويقول: «فلا تجوز في الدين مخاطبة الناس بالجلي المكشوف؛ لأن ذلك مُناقض للإيمان بالغيب... وإذا كان كلامك الذي تُخاطبهم به من الله، لا منك، وما أنت فيه إلا مُبْلَغ، كان من إيمانهم بالغيب أن يسمعه، وإن لم يفهموه، وقبلوه، وإن لم يُدركوه، ويُطيعوه، وإن لم يعقلوه».

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 640.

«وختلاصة القول: إنَّ الدِّينَ لا يُخاطَبُ المُعقُول، وإنَّما يُخاطَبُ العاطفة والإحساس النَّفسيَّ ليس إلَّا؛ لأنَّه لو خاطَب المُعقُول لما كانت النَّتيجة سوى الجَدال والنِّقاش بلا جدوى، وإذا خاطَب المُعقُول - أحياناً - فإنَّما يُخاطَبها على سبيل التَّفكُّه من هذه النَّاحية، فلا يُجرِّد خطابها من العاطفة كُلَّ التَّجريد...» (1).

ويتجاهل الرِّصافي كُلَّ الآيات الصَّريحة المُحكِّمة التي تدعو المؤمنين إلى استخدام العقل في أُمور الدُّنيا والدِّين معاً، ومدحه للَّذين ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (2).

وهو لكي ينصرف عن هذه الحجج الدَّامغة كُلِّها، التي تتعارض مع رُؤيته، يعود إلى فكرته ومُنطلقه بأنَّ ذلك أُسلوب النَّبي، وقد تعمَّده تعمُّداً، واختاره اختياراً:

«... إذا علمتَ هذا، فقد هان عليك أن تعلم بأنَّ وُجُود المُتشابه في القرآن لم يكن اتِّفاقاً، ولا هو من عمى وحصر، بل تعمَّدته بلاغة مُحَمَّد تعمُّداً، وإلَّا؛ فلو شاءت بلاغته لأنتَّ به كالْماسَة الجوفاء، باطنها كظاھرھا، مُتلائي بَرّاق، وليس هذا على بلاغة مُحَمَّد بعسير، كما أنَّه ليس ذاك عن فطائنه ببعيد» (3).

(1) المرجع نفسه؛ ص 648.

(2) المرجع نفسه.

(3) المعجيب في الأمر أنَّ الرِّصافي يُناقض نفسه تماماً، ويأتي برأي مُناقض في ص 663، فُسبحان الله مُقلِّب القُلُوب!!.



## القَصَصُ الْقُرْآنِيَّةُ:

يُناقش المؤلف - في صفحات كثيرة - قصّة خلق آدم، وإسجاد الملائكة له، وتكبّر إبليس من أن يسجد له، ويلاحق ما جاء من تفسير لهذه القصّة في الكُتُب للزّخشي، وبنال الزّخشيّ ما شاء له من شراسته، ويدحض كلّ ما جاء في هذه القصّة على أنّها خيال، لا أساس له، وإنّما هي إسرائيليّات اعتمدها محمّد من كُتُب اليهود، وذلك حيث يقول:

«... هذه هي قصّة آدم مع إبليس، وقد أخذنا بالإجمال والاختصار، ولو أتينا بتفاصيلها لطال الكلام، وهي - في أصلها - من خرافات بني إسرائيل في التّوراة، فأخذت منها، ودُكرت في القرآن بتصرّف، فجاء في التّصرّف فيها على وجه يجعلها مُؤدّية إلى المغزى والغرض المقصود من إيرادها في القرآن، والذي نراه أنّ المراد منها لا حقيقتها؛ إذ لا حقيقة لها، وإنّما المراد تصوير ما لله من قُدرة باهرة، وسلطان قاهر، وحُكم مُطلق، وأنّه تعالى لا يُسأل عمّا يفعل...»<sup>(1)</sup>.

## المسيح بن مريم:

على غرار أسلوبيه في قصّة آدم مع إبليس، يسوق قصّة عيسى - عليه السلام - في صفحات كثيرة، ويُنَاقِش ما جاء في القرآن الكريم مُحالفاً لعقيدة المُسلمين، وينتهي إلى القول:

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 684.

«... والذي نراه أنَّ مُحَمَّدًا كان يظنُّ صلب المسيح مُنافياً لمنزلة الرّفعة المقدّسة، وأنَّ الصّلب ممّا يشين كرامته، وكان هو شديد الحرص على دُخول النّاس في الإسلام، يتحجّن له القُرص، ويبتكر له الوسائل، فأراد أن يستميل إليه النصارى بأنَّ يُعظّم المسيح كُلّ التعظيم، ويجعله أعظم وأعلى من أن يُصلّب، فنفي عنه الصّلب، وقال برفعه إلى السّماء، ظنّاً منه أنّه - بذلك - يستميل النصارى إلى الإسلام، وفاته أنّه بنّي الصّلب قد هدّم دينهم من أساسه، وأنّ مثل هذا القول يُعدّ - في عقيدتهم - كُفراً بعظّمة المسيح»<sup>(1)</sup>.

والرّصافي - بهذه الطّريقة الماكرة والأسلوب المُلتوي، الذي ظاهره مدح، وباطنه ذمّ - يُريد إلى أن ينتهي إلى غرضه، الذي ما فتئ يدعو له، وهو أنَّ القَصص القرآني من تأليف مُحَمَّد، ولا أساس له من الصّحّة في الحقيقة، كما مرّ بنا آنفاً. ولا يكتفي بقصّة المسيح والمسيحيّين، وإنّما يُضيف إليها قَصص القرآن عن بني إسرائيل، ويُعلّله بالتعليل السّخيف نفسه؛ حيثُ يقول:

«... وكذلك انتهج مُحَمَّد هذا النّهج لاستمالة بني إسرائيل، وتآلفهم، فأكثر من ذكّرهم في القرآن، وأزكّبهُم في غير سُروجهم، وفضّلهم على العالمين، وجعلهم أعزّ خلق الله على الله، وعظّم أنبياءهم تعظيماً لا يستحقّونه، ولم يروا مثله في توراتهم.

---

(1) المرجع نفسه؛ ص 691.

ولقد لهِج القرآن بِذِكْرِ مُوسَى وَغِيْرِهِ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ، وَجَمَعَ لِبَعْضِهِمْ مِنَ الضُّدِّينَ - النُّبُوَّةَ وَالْمُلْكَ - كِدَاوُدَ وَابْنَهُ سُلَيْمَانَ... وَشَحَنَ الْقُرْآنَ بِقَصَصِهِمْ، وَأَقَاوِيلِهِمْ، وَمُعْجَزَاتِهِمْ، وَخُرَافَاتِهِمْ، حَتَّى لَا تَكَادَ تَجِدُ سُورَةَ خَالِيَةً مِنْ ذِكْرِهِمْ، كُلُّ ذَلِكَ لِاسْتِمَالَةِ شِرْذِمَةٍ مِنْهُمْ كَانُوا فِي دَارِ هِجْرَتِهِ <sup>(1)</sup>.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْمَرْءَ لَيَعْجَبُ مِنْ قُدْرَةِ الرَّصَافِي عَلَى تَزْوِيرِ الْحَقَائِقِ التَّارِيخِيَّةِ، وَيَكُونُ أَعْنَاقُ الْآيَاتِ حَسْبَ مُبْتَغَاهِ، وَنَظَرَتِهِ.

وَالصَّوَابُ أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى كَسْبِ وَدِّ الْيَهُودِ، وَلَا النَّصَارَى، وَلَوْ شَاءَ لَفَعَلَ، لَكِنَّ الْقُرْآنَ وَاضِحٌ فِي تَبْيِينِ ضَلَالَاتِهِمْ، وَقَتْلِهِمْ لِأَنْبِيَائِهِمْ، وَلِحَاجِهِمْ فِي آيَاتِ رَبِّهِمْ... وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾...

### وختلاصة القول:

إِنَّ الْهَاجِسَ الْمُسْتَبِدَّ بِالْمُؤَلَّفِ فِي يَحْتَنُ هَذَا هُوَ الْوُضُوءُ إِلَى تَحْقِيقِ شَيْءٍ وَاحِدٍ فِي أَذْهَانِ الْقُرَّاءِ، وَهُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ مِنْ تَأْلِيفِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا صِلَةَ لَهُ بِالْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ، رَغْمَ مَا اسْتَعْدَمَهُ مِنْ أَسَالِيبِ الْاِلْتِواءِ وَالْمُدَارَاةِ، يُفْلَحُ - أحياناً - فِي تَغْطِيَةِ مَقْصَدِهِ، حَتَّى لَا يُثِيرَ عَاطِفَةَ الْمُسْلِمِينَ ضَدَّهُ، وَيُحَقِّقُ أُخْرَى عِنْدَمَا تَكُونُ أَقْوَالُ الْمُفَسِّرِينَ ضِدَّ مُبْتَغَاهِ قُوَّةً نَاصِعَةً...

(1) المرجع نفسه؛ ص 691.

ومن أجل هذا الغرض نراه يجتهد في حشد ما يزعمه أخطاء بلاغية، أو دلالية، أو منطقية، حتى ولو أدّاه ذلك إلى التّطاول على الله - سبحانه وتعالى - نفسه، وهو ما دفعه - أحياناً كثيرة - إلى استخدام أسلُوب التّهكُّم، والسُّخرية، والانتقاص، والشنيمة. وتلك طريقته، ولا سيما مع كُلِّ مَنْ يُخالفه الرّأي من المُفسِّرين والعُلَماء، مهما كان قدرهم ومكانتهم العلميّة.

فهل نجح الرّصافي في منهجه، الذي هو - في الحقيقة منهج - مكشوف مفضوح؟!

قد ينجح فيه لو أنّ مَنْ سبقه من المُستشرقين وأعداء الإسلام نجحوا فيه؛ لا لشيء إلا لأنّ الله - سبحانه وتعالى - مُنزل الكتاب - رغم أنف الرّصافي - يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

الأخطاء المنهجية  
في  
كتاب الشخصية المحمدية  
الأستاذ الدكتور  
محمد بن موسى باباعمي

## د. مُحَمَّد بن موسى باباعمي

- \* وُلد ببني يسجن في 27 / 04 / 1967 م.
- \* الدِّراسة الحُرَّة: المدرسة الجابريَّة، واستظهر القرآن بها.
- \* ماجستير في العقيدة والفكر الإسلامي، سنة 1997 م، جامعة الخرّوبة.
- \* دُكْتُوراه في العقيدة ومُقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، سنة 2003 م.
- \* أمين عامّ جمعيّة الثَّراث، القراءة، ورئيس تحرير دوريّة الحياة.
- \* عُضو جمعيّة العلّماء المُسلمين الجزائريّين، وسكرتير التَّحرير لجريدة البصائر سابقاً.
- \* مؤسّس مكتب الدِّراسات في التَّربية والتَّعليم، ومدارس خاصّة في الحمير، ومؤسّس معهد المناهج بالعاصمة.
- \* من أبحاثه:
- \* دوريّة الحياة، إدارة التَّحرير لمُدَّة تسع سنوات.
- \* مفهوم الزَّمن في القرآن الكريم، طُبِع ببيروت.
- \* أُصُول البرمجة الزَّمنيّة في الفكر الإسلامي، طبعَتان: الجزائر، ودمشق.
- \* سلسلة "ما بأنفسهم": فييكوس، الصَّدق في العمل الاجتماعي، النَّسق المفتوح، حَدَّد غايتك، وصبغة الله.
- \* مُعجم أعلام الإباضيّة، بالاشتراك.
- \* مُعجم مُصطلحات الإباضيّة، بالاشتراك.
- \* إنشاء قُرص مُدمج (برنامج كُمبيوتر) مُعجم أعلام الإباضيّة.
- \* مؤسّس موقعين في الإنترنت: [tourath.net](http://tourath.net) ، [veecos.net](http://veecos.net)

## التحقيق ونسبة الكتاب إلى الرّصافي

الكتاب ألّفه الرّصافي سنة 1933 م، وتركه مخطوطاً في مجلّدات ثمانية، ثُمَّ ذكّر أنّ هذه الطّبعة «نسخة من الأصل، مع الوثائق الملحقة، محفوظة في إحدى مكتبات جامعة هارفارد، وجاءت هذه الطّبعة مُوافقة لها»<sup>(1)</sup>.

وقراءة أوّليّة في الطّبعة، بإسقاطها على قواعد التحقيق العلميّ وأُسسه، تُظهر لنا جملة من الثّغرات، التي لا تُقبَل من مُبتدئ في "تحقيق النّصوص"، بله هيئة علميّة مُحترمة، أو عالم يعرف حُدود الأمانة العلميّة، ويحترمها، وهي:

### 1- التّعمية على المواصفات العلميّة الدّقيقة للنّسخة المعتمدة:

كذا إخفاء بيانات الفهرسة في المكتبة، مع أنّ الأمانة العلميّة تقتضي ذكّر جميع المواصفات الواردة في المخطوط المُحقّق، حتّى يتمكّن الباحثون من الرّجوع إليه في حال الضّرورة، والحُكم على صحّة ما جاء فيه.

### 2- إخفاء اسم المُحقّق، أو المُحقّقين: وهذا يفتح أكثر من باب

للتشكيك فيما جاء في الكتاب المنشور؛ حتّى إنّنا لا نعرف الجهة التي نشرت الكتاب؟! ولماذا اختارت هذا الوقت؟! وهل نَشَرْتُهُ كاملاً؟! أم ناقصاً؟! أم مُضافاً إليه؟!

---

(1) الرّصافي، معروف: كتاب الشّخصيّة المُحمّديّة؛ منشورات الجمل؛ ألمانيا؛ 2002 م؛ ص 4 - 6.

### 3 - اعتماد نسخة واحدة، مُصَوَّرة من النسخة الأصلية:

والمطلوب - منهجياً - هو محاولة العثور على نسخ أخرى، وبخاصة؛ عندما يكون الكتاب في مثل هذه القيمة باعتبار مؤلفه، الذي ليس مغموراً ضمن أعلام هذا القرن، بل هو من أعلام الشعر العربي المعاصر.

ثم إنَّ "النسخة الأصلية" - هنا - لا تعني نسخة المؤلف، بل الواضح من نص الإجازة أنَّها ليست نسخة بيد المؤلف، وإنَّها هي نسخة معروضة عليه فقط، قال الرصافي: «اطَّلَعْتُ على هذه النسخة»، وهذه العبارة تدلُّ - بوضوح - أنَّ نَمَّةً نسخاً أخرى، وهذه إحداها.

والغريب حقاً أنَّ لا توجد نسخة بيد المؤلف، ذلك أنَّه من أعلام القرن الماضي.

وأغرب منه أنَّ يُجيز نسخة مليئة بالأغلاط والأخطاء، على الأقل؛ حسب النص الذي بين أيدينا، ولذلك «يُصبح نشرُ مثل هذه الكتب - بحالتها التي هي عليها - لا يتعدى - أكثر الأحيان - توفيرُ نسخ خطية - قد تكون مُحَرَّفة مُصحَّفة مُبهمَة - من الكتاب، وهو أمرٌ ما أبعدُه عن التحقيق الدقيق»<sup>(1)</sup>.

### 4 - نقرأ في ص 13 تحت عنوان: إيضاح في النسخة الأصلية:

«إجازة الرصافي في النقل: اطلَّعتُ على هذه النسخة... من كتابي

---

(1) معروف، بشار عواد: ضبط النص والتعليق عليه؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان؛

1402 هـ/ 1982 م، ص 77.



"الشَّخْصِيَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ"، فرأيتها صحيحةً كاملةً، خالية من الأغلاط في النسخ، فلذا؛ أُجيز... روايتها، والنقل عنها... كتبُ هذا إعلاماً بذلك. معروف الرصافي".

فَنَقُلْ إجازة الرصافي بهذه الصِّفة لا يحمل أيَّ قيمة علميَّة؛ لأنَّه جاء مرقوناً، والمعمول به في مثل هذه الحالات تصوير نصِّ الإجازة بخطِّ يد المؤلف، تحميراً للدِّقَّة، وحرصاً على نسبة الكتاب إلى صاحبه.

فالإجازة في عُرْفَ المُحَقِّقِينَ إعلان عن المطابقة لمضامين الكتاب «مَعْنَى وَبَيَّنَى»، كما وضعها، وأرادها المؤلف... وهي نموذج من نماذج التَّبَيُّتِ العلمي، الذي كان يَتَّبِعُهُ العُلَمَاءُ، وهي دليل على صِحَّة الكتاب، وقَدِيمِهِ، وتاريخه، وَضَبْطِهِ»<sup>(1)</sup>.

#### 5- نسبة الكتاب - بهذه الصِّفة - إلى الرصافي غير ثابتة:

وإنَّ كَانَ أُسْلُوبُ الكتاب يرقى إلى مُستَوَاهُ الأديب، والمعروف في مجال التَّحْقِيقِ أَنَّهُ «ليس بالأمر الهين أنْ نُؤْمِنَ بصِحَّةِ نسبة أيِّ كتاب إلى مُؤَلِّفِهِ، ولا سيما الكُتُبُ الخاملة التي ليست لها شهرة»<sup>(2)</sup>.

وبالنَّالَى؛ فلا تُبَيَّنُ الكتاب للرصافي، ولا تنفيه عنه، ونترك المسألة للتَّحْقِيقِ العلميِّ، وهذا يحتاج إلى تجميع للنسخ، ودراستها دراسة منهجيَّة

---

(1) ناصر، مُحَمَّدُ صالح: منهج البحث وتحقيق النُّصُوص؛ نشر معهد القضاء الشرعي، سلطنة عُمان؛ 1415هـ؛ ص 97.

(2) هارون، عبد السلام: تحقيق النُّصُوص ونشرها؛ دار النهضة العربيَّة، بيروت؛ 1422هـ/ 2001م؛ ص 46-47.

دقيقة، ولذا؛ سنُسَلِّمُ بنسبته إلى الرّصافي جَدَلًا، وسنُحَاوِلُ الرَّدَّ عليه؛ بناءً على ذلك؛ ذلك أنَّ المقصد الأوَّل هو المقولات التي وَرَدَتْ فيه، وليس الغرض الأساس هو صاحب هذه المقولات.

6- من أبجديات التحقيق العلمي ما يُعرَفُ بتحقيق مَثْنِ الكتاب، ومعناه: «أَنْ يُؤَدَّى الكتاب أداءً صادقاً، كما وضعه مؤلفه كَمَا وَكَيْفًا، بقَدْر الإمكان»<sup>(1)</sup>.

فالتَّسَبُّعُ للنسخة المطبوعة يُعَجِّبُ من رَسْمِ الهمزات، وهي جُزءٌ من تحقيق المَثْنِ، فكثيراً ما نقرأ همزة للوَصْلِ مكان همزة القَطْعِ، والعكس كذلك، والأمثلة أكثر من أَنْ يُشار إليها، أو تُحصَى.

وهذا دليل على أَنَّ المَثْنِ لم يَتَلَّ العناية العلميّة الكافية، ويبقى السؤال المُحَيَّرُ: كيف يُجيز الرّصافي هذه النسخة، بهذه الصّفة؟ أم أَنَّ النسخة المعتمدة هي غير هذه المطبوعة؟ ويبقى الأمر للتحقيق.

أما التّرقيم؛ فلا يبدو أن يكون مُضطرباً وقلقاً جدّاً، ففي بعض الأحيان يتعدى التّرقيم تماماً من فقرة، أو أكثر، رغم ضرورته، وفي بعضها الآخر تُوضع الفواصل والنقاط جُزْأً، دون أيّ ضابط منهجيّ، بل تكاد لا تجد في كامل الكتاب فاصلة منقوطة واحدة، وكُلُّ ما يعرفه الناشر هو الفواصل غالباً، والنقاط أحياناً.

---

(1) هارون: المرجع نفسه؛ ص 48.

ومن الغريب أنَّكَ تجد علامات التَّرقيم - أحياناً - موضوعة، لكن؛ في غير مكانها.

ومن الأمثلة على ذلك؛ الفقرة الأولى من الكتاب؛ فإنَّها مُكوَّنة من ثلاثة أسطر، غير أنَّها خالية من أيِّ علامة للتَّرقيم، رغم احتوائها على أكثر من جُملة، ونصُّ الفقرة كالآتي: «الحمد لله والصَّلاة والسَّلام منها علينا وبعد فقد كنت أكتب التاريخ وكنت أحسب للتَّاريخ حساباً وأجعل له منزلة يستحق بها أن أكتب ما أكتب حتَّى لقد قلت فيها قلته من قبل...»<sup>(1)</sup>.

وفي وسط الكتاب نقرأ قوله: «فإنَّ احتمال كون هذا من غلط، [كذا] الرَّاوي أيضاً بعيد لا يجوز أن يكون الرَّاوي غلط»<sup>(2)</sup>.

ففي هذه الفقرة - كما في الكثير من الفقرات - ضاعت كُلُّ قواعد التَّرقيم العلميَّة، ولا يُمكن فَهْمُها إلَّا بإعادة ترميمها ثانية.

والكتاب كُلُّه على هذه الشَّكلة، فيستحيل تتبُّعه فقرة فقرة، وإنَّما مثَّلنا له ليعرف القارئ مدى الخلل الذي يعيب هذه الطَّبعة، ويعيب النُّسخة المخطوطة المعتمدة.

٧ - المصادر والمراجع حُشِرَتْ في قائمة مُختلطة، غير مُرتَّبة ترتيباً واضحاً، تنقصها المعلومات الأساسيّة؛ مثل تاريخ النُّشر، ومكانه، ممَّا يعني أنَّ الرِّصافي - والقائمة نُسبت إليه - لا يفقه شيئاً في منهجيَّة البحث

---

(1) هارون: المرجع نفسه؛ ص 15.

(2) هارون: المرجع نفسه؛ ص 109.

العلمي، ولا في تقنيات الفهرسة الأولية، في زمن تطوّر فيه هذا الفن، وظهرت فيه مؤلفات، وبخاصة في أعمال المستشرقين، وهو - بذلك - لم يتأثر بهم في قوّة تنظيمهم، ودقّة تحقيقهم، وإن تأثر ببعضهم في التشكيك والمغالطة على الحقائق، في شأن محمّد عليه السّلام، والرّسالة المحمّديّة<sup>(1)</sup>.

### الخلل في المصادر المعتمدة:

إنّ الكتابة في موضوع عميق ودقيق، في مُستوى الترجمة لأعظم شخصيّة عرفتها البشريّة: الرّسول محمّد ﷺ، يحتاج إلى دراية، وإلى تمكّن، وهو أحوج ما يكون إلى مصادر موثوقة، وإلى وثائق مُعتبرة؛ وإلا، فلا تعدو أن تكون ترّهات تحاك، وخرافات تُنسج.

والرّصافي في كلّ ما كتب اعتمد على "السيرة الحلبية" اعتماداً يكاد يكون كليّاً، وقليلاً ما يعود إلى "سيرة ابن هشام" وبعض الكتب الأخرى، التي لا تتجاوز ثلاثين عنواناً؛ والأجدر به - إن كان حقّاً يحترم الحقيقة العلميّة، ويكتب لها - أن يعدّل عن الكتابة في هذا الموضوع، إلى أن يستوفي البحث والتّفتيش عن المصادر الأساسيّة.

(1) انظر مثلاً: بوش الجّد، جورج (1796-1859): محمّد مؤسس الدّين الإسلامي، ومؤسس إمبراطوريّة الإسلام؛ ترجمة وتحقيق عبد الرحمن الشّيح؛ دار المريخ، الرياض؛ 1425هـ/ 2004م. فهو كتاب كلّ حقّد وحنق على شخصيّة محمّد ﷺ، ولا يقل خطورة عن كتاب الرّصافي، وإن كان الانسان يلزّان في قرن، من حيث المغالطات، والتناقضات، والأحكام الجزائيّة، وفساد المنهج...

والمُحَيَّر - حقاً - أن نقرأ للرّصافي قوله: «أنا اليوم عند كتابة هذا، في منزل من الفُلُوجة، مُنقطع عن وسائل البحث والتّقيب، ليس لديّ من الكُتُب ما أرجع إليه، فليعذرني القارئ»<sup>(1)</sup>.

فهو - وإن قَصَرَ الاعتذار على معلومة واحدة - يكتب السّيرة المُحمّديّة كيفما شاء، من مصدر واحد تقريباً، في كامل هذا الكتاب، وهذا نَقْصٌ فادح، لا يُقبَل من عالم، له مُواصفات المُحقّق والمُؤرّخ، وعلى رأسها: الأمانة، والصّدق، والإخلاص، والتّجرّد، والدّكاء، والوعي...<sup>(2)</sup>.

وأغرب من ذلك تقريره أنّ "الرّواية لا تفيد العلم"<sup>(3)</sup>، واعتماده الكُليّ عليها، دُون تمحيص، ولا تحقيق.

والمُقرّر أنّ نور الدّين الحلبي، صاحب كتاب "إنسان العين في سيرة الأُمّين المأمون"، المعروف بالسّيرة الحليّة، من أعلام القرن الحادي عشر (توفي سنة 1044هـ/ 1633م).

وبالتّالي؛ فإنّ ما وَرَدَ في كتابه لم ينقل إلّا بالرّواية، بسند غير عال، فهو من المتأخّرين جدّاً، وكتابه مرجع، وليس مصدراً في السّيرة النبويّة، ذلك أنّ المصادر التي أرّخت لسيرة المُصطفى لم تتوقّف مُنذُ القرن الثّاني للهجرة، ومن أشهر أعلامها: ابن هشام،

---

(1) الشّخصيّة المُحمّديّة؛ ص 20.

(2) يزيك، قاسم: التّاريخ ومنهج البحث التّاريخي؛ دار الفكر البُناي، بيروت؛ 1990م؛ ص 45-48، تحت عنوان: صفات المُؤرّخ.

(3) الشّخصيّة المُحمّديّة؛ ص 53.

والواقدي، والزَّهري، وابن كثير... وما عُذُول الرّصافي عن هذه المصادر المتقدّمة، إلّا دليل آخر على استخفافه بالحقيقة العلميّة، وبالتّاريخ، الذي يراه «بيت الكذب، ومناخ الضّلال»<sup>(1)</sup>.

ولا شكّ أنّ «المُؤرّخ ليس قَصّاصاً، ولا أدبياً، يعتمد على خياله في اختراع الحوادث، أو الشّخصيات؛ وإنّما هو يستقي مادّته التّاريخيّة من الوثائق»<sup>(2)</sup>، ومن المصادر والمراجع التي يجتهد في تجميعها، وتمحيصها، بحثاً عن الحقيقة العلميّة، لا عن التّلفيق والمغالطة والخطابة؛ وبالتّالي؛ فإنّ هذا الجهد «يقضي المهارة، والدّقّة، والصّبر، والفتنة... أي أنّ هذا التعامل [مع المصادر] يقضي منهجاً علميّاً، ولا يتمّ بطريقة عشوائيّة»<sup>(3)</sup>، وواضح أنّ الرّصافي لا يملك هذا المنهج العلميّ، ولا يكتب التّاريخ للتّاريخ، بل ليُمرّر فكرة إلهاديّة، ويدافع عنها، فهو - فيما كتب - أقرب إلى القصاص وكاتب الأسطورة، منه إلى المحقّق والمُؤرّخ.

### الجهل بالتّاريخ؛

تحت عنوان "لا إله إلّا الله" يقول الرّصافي: إنّ كلمة التّوحيد «هي من مخترعاته [مُحمّد] ﷺ التي لم يُسبق إليها، على ما أرى»<sup>(4)</sup>.

---

(1) الشّخصيّة المُحمّديّة؛ ص 15.

(2) الوافي، عبد الكريم: منهج البحث في التّاريخ؛ منشورات جامعة قان بونّس،

بنغازي، ليبيا، 1998م؛ ص 113.

(3) المرجع نفسه؛ ص 114.

(4) الشّخصيّة المُحمّديّة؛ ص 18.

فكلمة "أرى" - هنا - لا تعدو أن تكون لغوًا؛ إذ الموضوع إخباري،  
إمّا أن يكون صادقًا، وإمّا أن يكون كاذبًا؛ فإمّا أن مُحَمَّدًا ﷺ اخترع كلمة  
التوحيد، وإمّا أنه لم يخترعها؟!

وفي جميع الحالات، فإن الواجب عليه أن يرجع إلى المصادر الموثوقة،  
وإلى تاريخ الأديان، والكتب السماوية السابقة... لا إلى رؤية فردية، لا وزن  
لها في مثل هذا المقام.

وأدنى معرفة بتاريخ الأديان، تُبين أن وحدانية الإله كانت دين  
الأنبياء، ودينهم جميعًا، وإنّا الانحراف جاء من الأنباغ، فما التثليث عند  
النصارى، وما إله اليهود يَهْوَا، سوى انحرافات في مسار الوحدانية عبر  
تاريخها<sup>(1)</sup>.

يقول المفكر جيفري لانغ: «إن الحقيقة الوحيدة والأهم، التي تحكم  
جميع الخلق، والتي وعظ بها جميع الرُّسل، هي: لا إله إلا الله»<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر عن هذا الانحراف تحت عنوان "العقيدة الإلهية" - العقاد، عباس محمود:  
حقائق الإسلام وأباطيل خصومه؛ منشورات المكتبة المصرية، بيروت؛ 1957م؛  
55-32.

(2) لانغ، جيفري: حتى الملائكة تسأل؛ دار الفكر، سورية؛ 2002م؛ ص 130،  
وما بعدها.

وانظر؛ ابن نبي، مالك: الظاهرة القرآنية؛ ترجمة عبد الصبور شاهين؛ سلسلة مُشكلات  
الحضارة؛ دار الفكر، لبنان؛ 1986م؛ ص 199-254، تحت عنوان: تاريخ الوحدانية.  
Bucaille, Maurice : La Bible, le Coran et la science. Ed. Agora, Paris,  
1998 ; pp7-21

أَمَّا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ؛ فيصف الأنبياء عبر تسلسلهم التاريخي بالوحدانية، ولا فرق بين نبي وآخر، ولا بين ديانة وأخرى، إلا في التشريع وحده، ففي سورة الأعراف نقرأ - عن جملة من الأنبياء والرسل - قول كُلِّ منهم لقومه: ﴿يَقُولُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ .

وفي سورة الأنبياء، يقول الله - تعالى - لنبيه مُحَمَّد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ .

فلو سلمنا للرصافي تكذيبه هذه الآيات، فليجتهد في الرد عليها بالتحقيق التاريخي، وليثبت عكس ما جاء فيها، وإلا؛ فإن مجرد الادعاء بالسفسطة لا يفيدان العلم في شيء، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانًى وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ... أَمْ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

### الحكم بلا علم، ولا دليل،

وضع الرصافي رسول الله ﷺ في ميزان النقد، فحكم عليه بها حكم من صفات الكمال والجلال، كما نسب إليه صفات النقص والضعف، ومن جملة ما نقرأ من أحكام في هذا المنحى، قياسه لعقلية مُحَمَّد ودكائه، وقوله في ذلك: هُوَ صاحب «تفكير عميق الغور، بعيد المرمى»، ثم لا يلبث أن يسلب عنه هذه الخلقة، فيقول: «أضف إلى ذلك ما أوتيته من غزارة علم، وثقوب ذكاء، إلا أنه في هذه الناحية لا يفوق إلا المحيط الذي نشأ فيه، والعنصر الذي هُوَ منه؛ أي إنَّ عقليته لا تتجاوز في تفوقها إلا العقلية العربية في زمانه، وبيئته»<sup>(1)</sup>.

(1) الشخصية المحمدية؛ ص 16-17.



## أين الدليل؟ وما هو مقياس الحكم؟!

بل: كيف أمكنه أن يُقيم مُقارنة بين عقلية مُحَمَّد وعقليّات أُخرى من عصر آخر، ثُمَّ يصل إلى التفاضل بينها بجرّة قلم؟!

وا عجب لمن يُلقي أحكاماً قِيَمِيَّة، دُون دراسة، ولا دراية، ولا معرفة بأدنى قياسات نسب الذكاء، التي أنتجها علماء في مجال علم النفس، وفي بُحُوث ودراسات الموهوبين بالخصوص.

أليس من العلم أن يستعين بإحدى قياسات الذكاء المعروفة في عصره؟! قال الدكتور زيد الهويدي: «اختبارات الذكاء هي مقاييس تُستخدم للتعرف على العمر العقلي للفرد، ومن ثمّ؛ نسبة ذكاء الفرد»، ثُمَّ يقول: «تختلف اختبارات الذكاء باختلاف الأساس، الذي يتمُّ وفقه التصنيف»<sup>(1)</sup>.

وتعود أُسُس اختبارات الذكاء إلى القرن التاسع عشر، مع مُحاولات "بنات" و"ستارن" وغيرهما من علماء نهاية القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين<sup>(2)</sup>.

---

(1) الهويدي، زيد: أساليب الكشف عن المبدعين والمتفوقين وتنمية التفكير الإبداعي؛ دار الكتاب الجامعي؛ العين، الإمارات، 1424 هـ / 2003 م؛ ص 55، وما بعدها.

(2) وانظر: تاريخ اختبارات الذكاء، في قُرص من تأليف:

Pr. Hans Jürgen EYSENCK, Dirk BUSSCHE : Test QI, Traduction MANESSE Olivier , Micro application France.

وفي كُلِّ الحالات هي أَسبق من عهد الرّصافي، فلو أنّه كان فطناً وذكياً، ومُعاشياً لعصره وزمانه، وعالماً بحقٍّ، لاستفاد منها في قياس نسبة الذكاء عند مُحَمَّد ﷺ؛ ولو حاول - إذن - لعلم أنّ هذه القياسات صعبة في حالات المُعانة المُباشرة، وهي قريبة من الاستحالة في حال الحُكْم بالغياب، إلّا بمقاربات تاريخيّة قد تكون صادقة، شريطة أن تُحقّق تحقيّقاً علميّاً دقيقاً، وتُدْرَس برويّة وتحليل، دون تحيُّز، ولا تنكُّر.

فها هو - إذن - الأساس الذي أعتَمده الرّصافي في قياس نسبة ذكاء مُحَمَّد ﷺ؟ أم أنّ المُهمّ عنده أن يحطّ من قيمة النّبِيّ، حتّى ولو كان ذلك بلا إشارة من علم، ولا معرفة دقيقة، ولا موضوعيّة؟

### بين التخطيط الاستراتيجي والخيال الجامح؛

إنّ ما عابه الرّصافي على الرّسول ﷺ، في وعده بالفتوح يوم الأحزاب<sup>(1)</sup>، صار اليوم علماً، يُنظَر للإدارة، والتّغيير، والتّخطيط، والتّخطيط الاستراتيجي، وإدارة الأزمات، وغيرها من المداخل الجديدة لفنّ القيادة.

يقول "لوك بروندار" في كتابه القِيم "وُجْهة الأفكار": "إنّ من أعمق مُستويات الإدارة قُدرة القائد على اختراع المُستقبل، أو تصوُّر

---

(1) وانظر- عبد الملك بن هشام: السيرة النبويّة؛ تحقيق د. إسماعيل طريفسي؛ دار صادر، بيروت؛ 1424هـ/ 2003م؛ ج 3، ص 145-146.

سيناريوهات، منها يستقي الأفكار الجديدة، التي تُغيّر فيه وفي الآخرين طريقة النظر إلى الأشياء»<sup>(1)</sup>.

فحتّى لو سلّمنا جدلاً أنّ ما وقع للرّسول في غزوة الخندق، ليس من قبيل المعجزة، فإنّ الأولى والأقرب إلى الحقيقة العلميّة أن يُنظر إليه على أنّه من قبيل التخطيط وإدارة الأزمات؛ والدليل أنّ البلدان التي ذكر النّبي ﷺ أنّها ستُفتح، قد تمّ فتحها كاملة بعد وفاته، وصدّق فيما قال: "هذه فتوح يفتحها الله بعدي؛ يا سلّمان".

فمحمّد ﷺ ليس قائداً لعدد من الجنود في عصره، وكفى، بل هو القائد الذي يوجّه أتباعه في حياته، وبعد وفاته، بما آتاه الله - تعالى - من أسباب الحكمة، والتّخطيط، والحنكة، والذكاء، والخلق العظيم...

قال الرّصافي في التّعليق على حادثة الكدية، أو أن حفر الخندق: «لا شكّ أنّ هذه البرقات واللمعات كانت تحصل من اصطدام المعول بالحجر عند ضربه بشدّة، كما يحصل مثلها تحت حوافر الخيل إذا مشّت في الأرض الصّلبة، واصطدمت بالصّخور، وإنّ محمّداً كان لا يُضَيّع الفرص، بل يتتبعها لبيان ما يدعو إلى تصديقه، والإيثار به، ولما كان عمله هذا يؤدّي إلى غايته، وكان - كما قلّتُ فيما تقدّم - واسع الخيال، قويّه؛ بحيث إذا تخيل أمرأ صار عنده كأنّه يراه بعينه، ويلمسه بيده، تصوّر غايته عند ضربات المعول، وتخيل أنّ تلك

---

(1) Luc de BRABANDERE : Le sens des idées ; ed. DUNOD, Paris, 2004 ; p126.

البرقات التي برقت له تحت المعول، قد أضاعت له البلاد التي يُريد فَتَحَهَا،  
حَتَّى صار كأنه يرى أبوابها وقُصورها...» (1).

والذي يُلاحَظ في الرّصافي جهله بأدنى أساليب القيادة، وبخاصّة  
حين الأزمات، ثُمَّ تَحُلُّه في تَقَدُّ مَنْ هُوَ مُعَلِّمٌ في فنِّ القيادة (2)، ومحلُّ دراسة  
من قِبَل المتخصّصين والحاذقين، فلو أنّه أخفى جهله، وَسَرَّ سذاجته، لكان  
أسلم له!!.

والحقُّ أنّ الرواية - إذا صدقت - لا يُمكن تفسيرها إلا بالوحي،  
الذي ساند القيادة، ودعّمها، في موقف حرج جدًّا، ولا تَعَارُضُ بين النُّبُوّة  
والذكاء، ولا بين الرّسالة والقيادة، فلا يُعَقَّلُ أن يكون النّبيّ والرّسول في  
مُستوى أدنى من الذكاء والقيادة، وإنّا المنطقي أن يكون في أعلى المُستويات،  
ذلك أنّه مُصطفى ومُخَيَّر من قِبَل خالق البشر، العالم بهم: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا  
الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، ﴿وَرَبُّكَ خَلَقَ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾.

### التعميم وتصيّد الشاذ من الأخبار

كثيرا ما وظّف الرّصافي خبرا شاذًا، وحادثة واحدة ممّا رواه أصحاب  
السّير، ليُثَرِّرَ قاعدة، ويُعمِّمَ ما جاء فيها من معاني، فيُحوّلها إلى أحكام  
مُطلقة، ثُمَّ ينسبها إلى مُحَمَّدٍ ﷺ.

(1) الشّخصيّة المُحمّديّة؛ ص 24.

(2) انظر "الصفات الشّخصيّة للرّسول القائد" - قلعه جي، مُحَمَّد رِوَّاس: دراسة تحليليّة  
لشّخصيّة الرّسول مُحَمَّد، من خلال سيرته الشّريفة؛ دار النّفائس؛ بيروت؛  
1408 هـ/ 1988 م؛ 226، وما بعدها.

ومن ذلك ادّعاؤه أَنَّ «الصَّدُق {عند مُحَمَّد} هُوَ ما وافق المصلحة،  
وإنْ خالف الواقع، والكذب هُوَ ما خالفها، وإنْ وافق الواقع»<sup>(1)</sup>.

لو أَنَّ الرّصافي قال: "الصَّدُق عندي هُوَ ما وافق المصلحة، وإنْ خالف  
الواقع، والكذب هُوَ ما خالفها، وإنْ وافق الواقع"، لناقشناه في مقولته،  
ولاعتبرناه مُحطّاً في تقديره، وكفى. أمّا وإنّه نسب الصَّدُق إلى مُحَمَّد ﷺ،  
وعرّفه بهذا التعريف المُنحرف؛ فالمطلوب منه أن يُقيم الدّليل على ادّعائه؛  
ولكنّ؛ لا دليل، وإنّا هي مُغالطات، وتناقضات، لا حصرَ لها، ولا عَدَ.

### فهما الدّليل - إذن - على هذا التعريف؟

أ هي آيات من القرآن الكريم؟

أم هي أحاديث صحيحة؟

أم هي أخبار صحّحت وتواترت عن الرّسول ﷺ؟

لا شيء من ذلك، وإنّما استنتاجات من أخبار شاذّة، فسّرَها  
الرّصافي تفسيراً ساذجاً، وراح يُعمّم الحكمُ فيها - بعد ذلك - على  
شخصيّة مُحَمَّد ﷺ.

فنرى الرّصافي يُبرّر تعريفه للصَّدُق بمقولة إبراهيم - عليه السّلام -  
عن زوجته: «هي أختي»؛ قال: "لأنّ المصلحة اقتضت ذلك". والمقولة  
تحتاج - بداية - إلى أن تثبت صحّة نسبتها إلى إبراهيم، فإنّ تبَيّن أنّها صحّت

---

(1) الشّخصيّة المحمّديّة؛ ص 44.

عن إبراهيم، فهي في حُكْم الضرورات التي تُبَيِّح المحظورات، وهي من الرُّخص التي يُبْصَر إليها حين تَحَقُّق الضَّرر، والضرورة تُقَدَّر بمقدارها، ولا يُقاس عليها.

أَمَّا القاعدة الصَّادقة عن إبراهيم - عليه السَّلام - أَنَّهُ صادق في كُلِّ ما يَأْتِي وما يَذَر، والصَّدَق عنده ما وافق الحقَّ، لا ما وافق المصلحة العامَّة، وإِلَّا فالمصلحة العامَّة تفرض عليه أَن يستجيب لطلب أبيه حين هَدَّدَهُ، فيُشْرِك بالله، ويؤمن بما كانوا يعبدون من أصنام، غير أَنَّ إبراهيم تحمَّل مشقَّة الجفاء من أبيه، وضَيَّع وُدَّهُ، ووَدَّ قومه، دفاعاً عن الصَّدَق، وعن الحقِّ، وعملاً بالمصلحة المُحقَّقة التي خالفت المصلحة العامَّة، وهي: عبادة الله وحده، والابتعاد عن الشَّيْطان الذي عصى ربَّهُ، وغوى، فهَدَّاه أبوه بقوله: ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، فلو كانت المصلحة هي مقياس الصَّدَق عند إبراهيم، لعمد إلى كِذبة يلفقها، فينجو بها من الأذى. إِلَّا أَنَّهُ - عليه السَّلام - قال: ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ﴾، ثُمَّ جاء ربُّه بقلب سليم من كُلِّ خُلُقٍ فاسد، ولا يضره - بعد ذلك - أَنَّهُ أُلْقِيَ في النَّار، ولقي الأذى من قومه، فنَجَّاه الله في الدُّنيا، وسيرفع مقامه في الآخرة.

ومن التَّعليلات التي راح الرِّصافي يُجمِّعها ليسند بها مقولته، ما نقله من وقائع وحوادث، كُلُّها جاءت أوان الحرب، ولها أحكام الحرب، ولعلَّ أبرزها ما كان من الصَّحابيِّ الجليل نُعيم الأشجعي بعد إسلامه في غزوة الأحزاب، وما صدر منه من المواقعة بين اليهود والمُشركين، بأمر من الرِّسُول ﷺ.

فعموض أن يتخذ الرّصافي هذه الحادثة دليلاً على جواز الكذب على العدو أثناء الحرب، وكفى، راح يُعمّم الجواز، وينسبه إلى مُحَمَّد ﷺ في جميع الحالات، والمعلوم في الفقه أن الكذب في الحرب وردّ التّرخيص فيه، لقول الرّسول ﷺ: "الحرب خدعة"<sup>(1)</sup>، وفي كُتُب الحديث باب يُعنون به "الكذب في الحرب"<sup>(2)</sup>.

يقول الرّصافي: «لا شك أن نعيماً لا يعدّ كاذباً فيما قال؛ لأنّ هذه الكذبة منه هي وفق ما تقتضيه المصلحة العامّة، ولذلك أجاز النّبي له أن يقولها. فالكذب - إذن - هو ما خالف المصلحة العامّة، لا ما خالف الواقع»<sup>(3)</sup>. وتعميمه هذا فاضح، ولا أساس له من الصّحّة، ومُخالف لكلّ منطق سليم، والجُملة التي استشهدنا بها خير دليل على ذلك.

وكلّ غرض الرّصافي أن ينتهي إلى نتائج مفادها:

«أنّ مُحَمَّد كذب في دعوته إلى عبادة الله وحده، وهو صادق ومُحقّ فيما فعل؛ لأنّ ذلك ممّا تقتضيه المصلحة العامّة؛

«وكذب في ادّعائه النّبوة، ولكنّ كذبه هذه هي بمثابة الصّدق؛ لأنّها

جاءت مُوافقة للمصلحة العامّة؛

(1) الشّوكاني، مُحَمَّد بن علي: نيل الأوطار؛ دار الحديث؛ ج 7/ ص 302. باب الكذب في الحرب. اطفيش، مُحَمَّد بن يُوُسُف: شرح النّيل وشفاء العليل؛ مكتبة الإرشاد؛ ج 521/14.

(2) وانظر مثلاً: العراقي عبد الرّحيم: طرح التّريب؛ باب الرّخصة في الكذب والخديعة في الحرب؛ دار إحياء الكُتُب العربيّة؛ ج 7/ ص 214.

(3) الشّخصيّة المُحمّديّة؛ ص 47.

\*وكذب في قوله: «أبها الناس إنَّ لكم حياة أُخْرَى تجزون فيها النِّعمِ  
إذا آمَنتُمْ، والجحيم إذا كَفَرْتُمْ»؛ فهو صادق في هذا الادِّعاء؛ لأنَّ المصلحة  
العامة تقتضيه.

فابن الدليل في كُلِّ ما وَرَدَ من أحكام؟! أم هي تعميمات مُتوالية،  
تنطلق من حوادث شاذَّة، وتُعَرِّض عن الآلاف من الآيات والأحاديث التي  
تدلُّ على أنَّ ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ صدق، وأنَّ الصِّدْقَ والحقَّ ما وافق الواقع،  
لا ما وافق المصلحة العامة؟! قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ  
لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

### المصطلح عند الرِّصافي،

يُعَدُّ العُلَمَاءُ الأغراضَ التي من أجلها يجب على الباحث أن يُعرِّف  
مُصطلحاته الأساسيّة، وبدُون التعريف يستحيل أن يوجد علم مَبْنِيٌّ على  
أُسُس ثابتة، وقواعد متينة، ومن مُجملَة هذه الأغراض:

\*إزالة الغُمُوض، أو على الأقلِّ؛ التَّقليل منه قَدْرَ المُستطاع.

\*توضيح المعنى، وتفسيره تفسيراً نظريّاً، يسهل على القارئ فَهْمُهُ.

ولا ريب أنَّ مَنْ يُؤَلِّف في علم خطير مثل علم التاريخ، يحتاج إلى  
تَمَكُّن في مُصطلحاته الأساسيّة، وإلى معرفة جيّدة بمُصطلحات المرحلة التي  
يُؤرِّخ لها، وإلاَّ انتفى أن يُصنَّف عمله ضمن الأعمال التاريخيّة الجادّة،  
وارتفعت عنه صفة العلميّة.



ومأً يلاحظ الناقد لكتاب الشَّخصيَّة المَحْمَدِيَّة أنَّ المؤلِّف يعتمد إلى المصطلحات الأساسيَّة والمفتاحيَّة في كتابه، فيُشَوِّشها، ويُعرِّفها تعريفاً سفسطائياً، ويُغالط فيها، فهو - بهذا - يزرع الغُمُوض، ولا يزيله، ويجعل القارئ المبتدئ في حيرة من أمره؛ ولذلك يُقرِّر علماء المناهج أنَّ مَنْ يقرأ نصّاً تاريخياً، ولا يوجِّه عنايته إلى محاولة فَهْم محتوياته، من المؤكَّد أنَّه سيُفسَّر بعض نواح منه، بناءً على تصوُّره، ممَّا قد لا ينطبق على الواقع التاريخي.

فقد نجد عبارات، أو كلمات، تُوافق آراءه وتصوره للحوادث، فيستخرج هذه العبارات ذُون وعي منه، ويجعل منها نصّاً خيالياً ومُفتعلاً، ويضعه في موضع النصِّ التاريخي الحقيقي، الذي لم يتمكَّن من الوُصول إليه..

وأصدق وَصَف لكتاب الرِّصافي أنَّه "نصٌّ خياليٌّ مُفتعل، وُضع موضع النصِّ التاريخي"، ذلك أنَّه لا يستوعب المصطلحات التاريخيَّة، ولا يضبطها، ولا يقرأ المحتويات، بل يتصيَّدها.

والذي يُسجِّل على الرِّصافي أمام هذا الوضع أنَّه: تُسيطر عليه فكرة مُنحرفة، واتِّجاه إلحادي واضح، فيدرس التاريخ على ضوء هذا الانحراف، ولا يفهم ما يكتب، ولا يحترم ما يُقرِّر.

ومن أبرز المصطلحات التي عرَّفها الرِّصافي تعريفاً سفسطائياً، وغالط فيها، فأخطأ الصَّواب: الحقيقة، والخيال، والتَّصوُّر، والمصلحة العامَّة، والمنفعة، ووحدة الوجود، والصِّدْق، والكذب، والغاية...

## السُّفْسُطَة:

الكتاب خير أنموذج على "السُّفْسُطَة"، ويبدو أن صاحبه قد اتقنها إتقاناً كبيراً، وأبدع فيها إبداعاً شديداً، فلو جاز لنا أن نتخير عنواناً صادقاً لكتابه، يُعبر عن محتواه تعبيراً واضحاً ودقيقاً، لما كان غير: "كتاب السُّفْسُطَة".

ولنمثل لما قلناه بالعنوان الأول في الكتاب، وهو: "باسم الحقيقة المطلقة اللانهائية"، فقد جاء تحته خطوات هي:

- الإغلاء من قيمة التاريخ في بدايات حياته العلميّة.

- الكُفر بالتاريخ بعد ذلك، فهو - في رأيه - "بيت الكذب، ومناعج الضلال، ومُتشجّم أهواء الناس" - البراءة من التاريخ، بعد ذلك.

- الاعتصام بالحقيقة، والحقيقة وحدها.

- إسخاط الناس إرضاء للحقيقة.

إلى هذه المرحلة يُمكن للعاقل أن يقبل - ولو جزئياً - ما بناه الكاتب من مُقدّمات ونتائج، لكن؛ شريطة أن يأتي بالدليل عليها، ويضع لنا تعريفاً علمياً للحقيقة<sup>(1)</sup>، فهل هي "إلهه ومعبوده" فيُسيح بحمدها، ويُصلي، ويُسلم منها عليها، كما فعل؟!

---

(1) وانظر مقالة الحقّ لفرنسيس بيكون - العقّاد، عبّاس محمود: فرنسيس بيكون مجرّب العلم والحياة؛ منشورات المكتبة العصريّة، بيروت؛ د، نا، ص 92-95.

أم هي إثارة من علم لديّ، اكتسبه بصفاء النفس، وطول التعلّق،  
كحال الصوفيّة؟!

أم هي ميزان عقليّ، له خصائصه وضوابطه، مثل الذي تفنّن في تحليله  
بعض الفلاسفة العقلانيّين؟!

فما هي الحقيقة المطلقة اللانهايّة في عُرْف الكاتب؟!

يُجيب الرّصافي بكُلّ سذاجة «إنّ الحقيقة عندي ما أنتجته تفكيري في  
حرّيّته، فانا مُحقّ إذا استطعتُ أن افكر حرّاً، وأكتب حرّاً»؟!

بأيّ عقل يكتب صاحبنا؟! فلو أنّ كلّ الناس صدروا - في الحقيقة -  
من ذواهم، ومن أنفسهم، إذاً؛ لما استقامت الحياة، ولما كان للعقل والفكر  
معنى «وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ».

وغنيّ عن البيان أنّ السّفسطائيّين هم الذين كانوا يقولون بنسبيّة  
المعرفة، ويدّعون أنّ الإنسان مقياس للحقيقة، وليس ثمة حقيقة مُطلقة،  
فَوَضَعَ أرسطو حدّاً لهذا المنهج المُخلّ، غير أنّ الرّصافي ما يزال يُفكّر  
سفسطائيّاً، ويؤلّف سفسطائيّاً!!.

### ابن خلدون ينقد الرّصافيّ!

أقلّ ما يُقال عن هذا الكتاب أنّه لا يرقى إلى البحث العلميّ الجادّ،  
وإنّ مؤلّفه أخطأ الصّواب، وجانب الصّدق، وإنّ ادّعاءه. فهو الأسطوريّ  
في خياله الواسع، ولا علاقة له بالتاريخ، ولا معرفة له بمناهجه، وتقنيّاته.

والمقصد الجوهري في الرّدّ عليه هو القارئ المبتدئ، لا العالم المحقق،  
ولأفانّ مَنْ يملك آليات الدراسة والتحليل، لا يجد صعوبة في اكتشاف  
الخلل، ولا عتّى في معاينة التناقض، واستخراج المغالطة... ولا يشفع  
للرّصافي أسلوبه الأدبي المنمّق، ومُستواه الأدبي الرفيع، ذلك أنّ المعاني هي  
المقصد في الفكر البشري، وليست المباني سوى وسيلة إليها، لا تحل محلّها،  
ولا تكمل وَهْنَهَا.

ولم أجد - فيما قرأت - نصّاً أبلغ في تحليل علم التاريخ، ممّا كتبه ابن  
خلدّون في مُقدّمته، فيه يظهر الفرق بين مَنْ يلج التاريخ عن علم ودراية،  
وبين مَنْ يتطلّع عليه بسذاجة وغواية، وكأنّه يوجّه الخطاب للرّصافي ومَنْ  
على شاكلته، فيقول: «وفي باطنه [التاريخ] نظرٌ وتحقيقٌ، وتعليل للكائنات  
ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها عميق، فهو - لذلك -  
أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعدّ في علّومها خليق».

وإنّ فُحول المؤرّخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيّام،  
وجَمَعُوها، وسَطَرُوها في صفحات الدفاتر، وأودعوها. وخلطها المتطفّلون  
بدسائس من الباطل، وهموا فيها، وابتدعوها، وزخارف من الروايات  
المُضَعَّفَة لفقوها، ووضعوها. واقتفى تلك الآثار الكثيرة يَمُنّ بعدهم،  
وأتبعوها، وأدّوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع  
والأحوال، ولم يراعوها، ولا رفضوا أثرها الأحاديث، ولا دفعوها،  
فالتحقّق قليل، وطرف التنقيح في الغالب قليل، والغلط والوهم نسب  
للأخبار، وخليل. والتقليد عريق في الأدميّين، وسليل، والتطفّل على الفنون

عريض طويل، ومرعى الجهل بين الأنعام وخيم وبيل. والحقُّ لا يُقاوم  
سُلْطانه، والباطل يقذف بشبهات النّظر شيطانه، والناقل إنّما هو يُملي،  
وينقل. والبصيرة تنقد الصّحيح إذا تمكّل، والعلم يجلو لها صفحات  
القلوب، ويصقل<sup>(1)</sup>.

فإنّ الله - تعالى - ندعو أن يجعلنا من أهل الصّدق والتّحقيق، وأنّ يُيسّر  
لنا أسباب العلم من أسلم طريق، فهو القائل، وقوله الحقُّ:  
﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ والحمد لله ربّ العالمين.

---

(1) عبد الرحمن ابن خلدون: المقدّمة؛ دار إحياء الثّراث العربي، بيروت؛ ص 3-4.

مزالق الرّصافي

في

علم الفلك

الأستاذ الباحث

إسماعيل بن عمر بيوض

## أ. إسماعيل بن عمر بيوض

- \* من مواليد القنطرة، جنوب الجزائر سنة 1972م.
- \* درس مراحله الابتدائية في القنطرة، واستظهر القرآن بها.
- \* له العديد من الشهادات العليا في تكنولوجيا المعلومات، والإعلام الآلي، وعلم الفلك... من معاهد في الجزائر، وقسنطينة.
- \* اللغات التي يعمل بها: العربية، والإنجليزية، والفرنسية.
- \* مدير التخطيط لمكتب الدراسات العلمية بالجزائر.
- \* كان مديراً للتنظيم في شركة للكيمياويات.
- \* كان مديراً إدارياً في صيانة الإعلام الآلي في الشركة الدولية هالبرتون للبترول، حاسي مسعود الجزائر.
- \* تحصل على عدد من الجوائز العالمية في علم الفلك، منها:
  - الجائزة الأولى من الأمم المتحدة، بواشنطن، سنة 2003م.
  - الجائزة الثانية في المعرض العلمي العالمي، جرُونوبل، فرنسا.
  - مشاركة في يوم علم الفلك، بدرجة امتياز، كُولُورادُو، الولايات المتحدة الأمريكية.
  - مُشرف على مدرسة مشروع الأقمار الصناعية، جمعية الشعري، بالتماون من الناسا NASA.
  - له عدة أبحاث ومحاضرات في علم الفلك، والمعلوماتية، منها:
    - \* القائد الناجح، مط. ضمن سلسلة ما بأنفسهم.
    - \* نُظُم المعلومات في المؤسسات التربوية.
    - \* مصادر القرار، في إدارة المؤسسات التربوية...

## خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

إنَّ ما وجدناه في هذا الجزء من محاولة إبطال مُعجزة القرآن في موضوع الكون هو أمر واضح؛ وهو: الخَلْطُ الفادح بين خَلْقِ الكون، وبالتحديد؛ بداية الخَلْقِ بالأرض أم بالسَّمَوَاتِ، ومراحل تطوُّر الكون، ونشأته عُمُوماً.

وبيان هذا كالآتي:

### الأرضُ مركزٌ للكون !

اتَّخذَ الكاتبُ معروفُ الرِّصافي مَنَفَذاً ذَكِيّاً لِيُغالطَ به القارئ في صفحة 650؛ حيث قال: " اعتبر الأرض مركزاً للعالم، وإذا كانت مركزاً، فلا بُدَّ أن تكون هي التي خُلِقَتْ أولاً قبل السَّمَوَاتِ. "

ويُمكن إبطال هذا الحُكم من عدَّة أوجه:

- لا يُوجد تلازم بين نشأة الأرض أولاً قبل السَّمَوَاتِ، واعتبارها مركزاً للعالم، فهذا خطأ بحدِّ ذاته.

- إنَّ دوران جُرم حول جُرم آخر لا يستلزم - حتماً - أنَّ الجُرم الذي هو في المركز خُلِقَ أولاً، وفي جميع الحالات؛ وأكبر دليل على هذا الصُّور التي رصدها التلسكوب هابل HUBBLE... حيثُ أظهرت مجموعةً منها اصطدامَ مجرَّات كاملة ببعضها. (المجرَّات بنى كبيرة جداً مُقارنة بالأرض).



- إِنَّ مَا هُوَ مُؤَكَّدٌ عِلْمِيًّا أَنَّ مَا يَدُورُ حَوْلَ الشَّمْسِ، والقمر الذي يدور حول الأرض - مثلاً - لا يدور بمدارات دائريّة، وإنّما هي مدارات إهليجيّة، وفكرة اعتبار الأرض مركزاً للعالم خطأ من وجهة نظر الحركة، وهذا ما توصل إليه العالم الفلكي: "يوهانس كيبلر: 1906".

- إِنَّ نشأة الكون ودراسة تطوّره تعتمد - أساساً - على البنى الكونيّة والموادّ المكوّنة لها، وغيرها: مثل الهيدروجين، والطاقة، أمّا الحركة؛ فلا تُمثّل سوى جزء من العمليّة. والعلم الذي يدرس ذلك هو الكسُمولوجيا، والفيزياء الفلكيّة، وموضوع: الحركة والدوران يُشكّلان جزءاً يسيراً من هذا العلم.

### أيهما خَلِقَ أولاً: الأرض أم السموات؟

تعامل الكاتب مع الآيات القرآنيّة (9 - 12) من سورة فُصِّلَتْ: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تُكْفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ... ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، على أنّها مُفسّرة لبداية الخلق، ولم يعتبرها أساساً؛ إذ هُناك مراحل مختلفة حول نشأة الأرض، أو الكون، وسنُوضّح هذا كالاتي:

عرض الكاتب الآيات على أنّها أجزاء مُستقلّة، دون اعتبار التسلسل المنطقي للأحداث:

﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ .

﴿ وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ .

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ .

﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ .

﴿ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ .

﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ .

نلاحظ أنَّ الآية بدأت بخلق الأرض؛ حيثُ إنَّ الله - تعالى - وظَّف كلمة "خَلَقَ" للأرض، أمَّا السماء؛ فقال عنها: "أَسْتَوَى"، ولم ترد كلمة "خَلَقَ"، وهذا يعني أنَّ السماء خُلِقَتْ أَوَّلًا.

والخلقُ هو: إيجاد الشيء من العدم، ولكنه قال: ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ لذلك استوى إلى السماء؛ وهي موجودة في إحدى مراحلها الأولى من الخلق: كأن نقول: "التقيتُ بعمرو وهو شاب"، ولكنه في الحاضر هو شيخ مثلاً. أمَّا قوله تعالى: ﴿ فَقَضَيْنَهُنَّ ﴾ سبع سموات؛ فجاء بعد أن قال: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾: خاطب الله الأرض بعد خلقها، والسماء ناداها بعد أن خلقها، ثم استوى إليها وهي دُخان، بعد أن استجابتا طوعاً، فقضاهنَّ سبع سموات: وقد تشكَّلت مجموعات شمسية،

ونجمّعات نَجْمِيَّة... بالعملية نفسها، حتّى قبل نشأة المجموعة الشمسيّة (التي تحوي الأرض) بملايير السّنوات، وماتزال، وهذا ما أثبتته الأرصاد والأبحاث العلميّة؛ كذلك التي قام بها إدوين هابل في العشرينيّات من القرن الماضي (1921-1924م).

وقد وقع الكاتبُ في تناقض: حيثُ اعتبر أنَّ الدُّخان أصل السّماوات السّبع، وقال: قول علميٍّ صحيح أنَّ كلمة الدُّخان جاءت بعد قوله تعالى: "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ: أَمَّا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ؛ فَخُلِقْنَ بَعْدَ أُمُورٍ أُخْرَى: وألقى في الأرض رواسي: دليل على أنَّ السّماء خُلِقَتْ أَوَّلًا.

- إنَّ تشكّل الجبال مُرتبط بحركة الألواح التّكتونيّة: والبراكين المُستمرّة إلى اليوم، ومُستمرّة مُستقبلاً، وهذا الأمر مُتعلّق بحركة النّواة الخارجيّة للأرض المُكوّنة من نسبة عالية من الحديد، بالإضافة إلى النيكل.

- وما توصّل إليه العلم هو أنَّ الحديد لا يُمكن أن يتكوّن بوجود نجم مثل الشّمس، وإنّما يتشكّل في نُجوم بمعدّل حرارة تفوق حرارة الشّمس بمئات المرات".

والله - تعالى - يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾، وهذا يعني أنَّ أهمّ مُكوّنات الأرض خُلِقَتْ قبلها!!!

- ومن المعروف أنَّ حركة النّواة الدّاخليّة المُكوّنة من هذا الحديد التي شكّلت الحقل المغناطيسي الأرضي الذي بدونه لا يُمكن أن تكون هناك حياة (حماية الأرض من الرّياح الشمسيّة والأشعّة الكونيّة).

- وفي ص 653 يقول الكاتب: "لا يرتاب مُرتاب أنَّ مجمل ما جاء به القرآن ..... أنَّ الأرض خُلِقَتْ ..... في يومين قبل خَلْق السَّموات".

الأخرى أن يقول: "خُلِقَتْ الأرض قبل تسوية السَّماء الأصليَّة، وهي دُخان، وقبل قضائهنَّ سبع سموات بالتحديد والدَّقة"، لأنَّه قال ثُمَّ استوى إلى السَّاء: وهي مُفرد السَّموات، وأصلها "وهي دُخان" في حالة دُخان" إلى أن قال: "فقضاهنَّ سبع سموات"، وهي حالة أُخرى للسَّاء حَدَّثْتُ بأمر من الله بعد كُلِّ ما ذكره بعد ذلك.

### الخلط بين خَلَقَ وَقَضَى:

إنَّ الكاتب يتحدَّث عن البلاغة، ويعدها قُوَّة الرِّسول مُحَمَّد ﷺ، فهي التي - بزعمه - جعلته يفترى على النَّاس، غير أنَّ الرِّصافي المُتمكِّن من هذا الاختصاص - في زعمه - قد خلطَ بين اللَّفْظَيْن الواردين في الآية الكريمة: "خَلَقَ وَقَضَى"، وموضع توظيفهما، وبالتالي؛ اختلط عليه المعنى المراد من هذه الآية.

## مَنْ قَالَ إِنَّ السَّدْمَ ثَرَى؟

في صفحة 656 ذكر الكاتب - في معرض حديثه عن السَّدْم - الآتي:  
"وبعضها يُرى بالعين المجردة، وهي في الليالي الصافية، الأديم تُرى كالضباب الرقيق، أو كالدُّخان".

لا يوجد سديم يُرى بالعين المجردة كالدُّخان، فلرؤية السَّدْم ينبغي استخدام أجهزة الرّصد، وهي خافتة، تقع على بُعد سنوات ضوئية، ومنها السَّدْم المعتم والمضيئة التي تنوّهج بفضل وجود طاقة نجم وراءها مثلاً، ولكن؛ يُمكن رؤية سديم بالعين المجردة كنقطة مضيئة خافتة (سديم الجبار).

ومن هنا؛ نلاحظ ما يلي:

- معرفة الكاتب بموضوع السَّدْم ضئيلة جداً، حتّى لأبحاث مَنْ سبقه؛ مثل: هيرتشل، غاليليو، نيوتن،...، وحتّى معاصريه: إدوين هابل...

- في الصفحة نفسها؛ يتحامل الكاتب على المُفسّرين، الذين كانوا يتخيّلون في تفسير الآية بسبب جهلهم بالموضوع، والكاتب نفسه وقع في الخطأ نفسه حين تحدّث عن موضوع الفلك.

- واعترف بأنّ السَّموات (بالجمع) خُلِقْنَ من الدُّخان، والذي لم يأت من العدم؛ إذ لا بُدّ من زمان خَلْقِهِ، مع أنّ الله ذَكَرَ الدُّخان مع السَّماء بصيغة المفرد، وهذا أكبر دليل على أنّ الآية تُوافق العلم بأنّ السَّماء خُلِقَتْ قبل الأرض.

## تناقض آخر:

من ص 656 إلى 657، يقول الرّصافي: آخر ما نقوله هو: "إنّ الآية القرآنيّة القائلة بخلق الأرض قبل السّماء لو أُريد فيها من "السّماء" القمر" فقط لكانت حقيقة علميّة صحيحة".

## وهذا تناقض آخر للكاتب:

لما تحدّث عن السّموات السّبع وأصلها: الدُّخان، قال بأنّ هذا صحيح، ويثبت علماء الفلك، ولما تحدّث عن السّماء بصيغة المفرد عدّها صحيحة، إلّا إذا كان المقصود من "السّماء" القمر.

مع أنّ كلمة الدُّخان وَرَدَتْ مع السّماء بصيغة المفرد قبل ذِكْر مرحلة تصنيفها إلى سبع سموات.

## التّفاوت في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾.

فسّر الرّصافي هذه الآية تفسيراً ظاهريّاً ساذجاً؛ أيّ فسّرها بالتّفاوت في البنية، وجهل تفسير الأمر بالجاذبيّة، انظر صفحة: (658).

## هل السّماء جسم أمليس؟

ص: 656: "ويظهر أنّ محمّداً كان يعتقد أنّ السّماء جسم أمليس، يُشكّل قبة مرفوعة على الأرض، وأورد قوله - تعالى - من سورة ق: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

إِنَّ الْآيَةَ لَا تُبَيِّنُ شَيْئاً مِنْ أَنَّ سَطْحَ السَّمَاءِ أَمْلَسُ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ فَهْمُ  
الرَّخِمْشَرِيِّ لِلآيَةِ.

شَكْلُ الْقَبَةِ يَتَضَحُّ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوْقَهُمْ كَيْفَ بُنِيْنَهَا﴾ حَتَّى فِي  
هَذِهِ الْحَالَةِ يَتَّخِذُ عُلَمَاءُ الْفَلَكِ مُنْصَطِلِحَ الْقَبَةِ إِلَى الْآنَ، لِلتَّبْعِيرِ عَنْ  
الْإِحْدَائِيَّاتِ الْكُرْوِيَّةِ لِلْقَبَةِ السَّوَاوِيَّةِ.

﴿وَمَا هَآ مِنْ فُرُوجٍ﴾

﴿وَمَا هَآ مِنْ فُرُوجٍ﴾ هُنَاكَ إِمْكَانِيَّةٌ لِتَفْسِيرِهَا بِمَا يُعْرَفُ بِسُرْعَةِ  
الْإِنْفِلَاتِ؛ الَّتِي لَهَا عِلَاقَةٌ مُبَاشِرَةٌ بِجَازِبِيَّةِ الْجُرْمِ؛ سَوَاءٌ أَكَانَ هَذَا الْجُرْمُ  
أَرْضاً، أَوْ نَجْمًا، أَوْ جَسَماً فُضَائِيًّا.... إلخ..

أَيُّ لَا يُمَكِّنُ لَشَيْءٍ أَنْ يَنْفِلْتَ إِلَّا إِذَا اسْتَطَاعَ الْوُضُوءُ إِلَى هَذِهِ  
السَّرْعَةِ، وَلَمْ يُكْتَشَفْ - إِلَى الْآنَ - أَنَّ هُنَاكَ شَيْئاً يَسْتَطِيعُ الْإِنْفِلَاتَ مِنَ الثَّقَبِ  
الْأَسْوَدِ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ الضَّوْءُ، أَوْ شَيْئاً لَيْسَ لَهُ كُنْتَلَةٌ، وَهُوَ يُعَدُّ أَسْرَعَ شَيْءٍ  
فِي الْكَوْنِ اكْتَشَفَهُ الْإِنْسَانُ إِلَى الْآنَ."

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾: فَهَمُ الرِّصَافِيُّ مَعْنَى الْبَحْرَيْنِ فِي الْآيَةِ  
الْكَرِيمَةِ دَوْلَةُ الْبَحْرَيْنِ، مِنْ هُنَا؛ يَتَضَحُّ - وَبِجَلَاءٍ - أَنَّ أَعْبَادَ فَهْمِهِ لَمْ تَعُدَّ  
حُدُودَ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ، وَلِذَلِكَ؛ عَدَّ مَدَارَ الْقَمَرِ سِوَاءً، مَعَ أَنَّهُ يَبْعُدُ بِأَرْبَعِمِئَةِ  
أَلْفِ كِيلُومِتْرٍ كَأَفْصَى حَدٍّ، أَمَّا أَعْبَادُ الْكَوْنِ؛ فَتَعُدُّ بِمِلَايِيرِ السَّنِينَ الضَّوئِيَّةِ.

## الخلاصة:

إنَّ الرّصافي مُغالط بالمقاييس جميعها، وسفسطائي في المجالات جميعها، ومن مُجملَة هذه المجالات علم الفلك، الذي يجهله تمام الجهل، ولا يعرف أبسط أبجديّاته، وهو - مع ذلك - يتناول على القرآن الكريم، فيخلط الحابل بالنابل، والصّواب بالخطأ، ويأتي بالفتّ والهزّيل من الأحكام، وتمثّل مزلقه في النّقاط الآتية:

- آية سورة فَصَّلَتْ دليل قوي على أَنَّ الله خَلَقَ السّماء قبل الأرض، وأنَّ السّماء خُلِقَتْ من الدّخان، الذي خُلِقَ أصلاً من العدم.

- تسوية السّماء في سبع سموات، مرحلة مُتقدّمة بعد خَلْق الدّخان والسّماء والأرض.

- وقع معروف الرّصافي في الخلط بين مراحل النّشأة وتطوّر الكون، وعلم الجيولوجيا، وعلم البيولوجيا (حين تحدّث عن الحياة، وأصلها).

- اعتمد البلاغة سبيلاً للافتراء على القرآن، وعلى شخص رسول الله، صلّى الله عليه، وسلّم، ولم يُفلح في ذلك، كما لم يُفلح غيره من المُشكّكين، والمُفترين.

- وقع الرّصافي في أخطاء علميّة، لعدم معرفته الدّقيقة بمُعلوم الكون، فهو يجهل حتّى أعمال مَنْ سبقه مثل كيبلر (1609)، وأبحاث إسحاق نيوتن، وآينشتاين.



- اكتشافات إدوين هابل 1921-1924 حول السدم والمجرات  
لم يأخذها الكاتب بعين الاعتبار، بل إنَّه جاهلٌ بها تمام الجهل، ولذا؛  
لم يفهم إعجاز القرآن في ذكره لتوسُّع الكون، ثُمَّ إثبات هذه الاكتشافات  
لما ذكره القرآن بعد قُرُون.

- اعتمد الكاتبُ أقوالَ بعض المُفسِّرين في إصدار أحكام على القرآن  
الكريم، وهذا خلطٌ بعينه.

- خَطَأُ المُفسِّرين - وإنْ حَدَثَ - لا يُمكن أن يكون نافيًا للحقيقة  
القرآنيَّة، التي مصدرها الله (ص: 656-657).

- لا يُمكن اعتبار مُساهمة المُفسِّرين حُجَّة، أو وسيلة، لإبطال الحقائق  
القرآنيَّة.

- لا يُمكن لسَيِّدنا مُحَمَّد أن يعرف كُلَّ سُنَنِ الله الكونيَّة حقَّ المعرفة،  
إلَّا التي أوحى بها الله إليه؛ إذ يُوجد ما يُعادل رُبْع القرآن الكريم يتحدَّث  
عن الكون، ونشأته، وكثير منها لم يُفسَّر لا من المُسلمين، ولا من غيرهم،  
إلى يوم الناس هذا.

ويبقى القرآن مصدر مُعجزات علميَّة وبيئيَّة، فلِكُلِّ زمان وعصر  
حقائق يصل إليها الإنسان، وخطؤه في تفسيرها لا يُنسب إلى القرآن الكريم.

مُعَالَطَاتُ الرَّصَافِي

فِي

عِلْمِ الْقِرَاءَاتِ

الْأُسْتَاذُ الْبَاحِثُ

طَهْ بِنُ أَبِرَاهِيمَ كُوزِي

## أ. طه بن إبراهيم كُوزي

- \* من مواليد بني يسجن جنوب الجزائر، سنة 1985 م.
- \* درس في مدارس البلدة، وفي المدارس الجابرية الحرة، واستظهر القرآن بها.
- \* تحوّل على عدّة شهادات في ثلاث لغات أجنبية: الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية.
- \* طالب في جامعة الجزائر، لغة ودراسات قرآنية.
- \* تبحّز في رواية ورش من معهد كفتارو بدمشق، سورية.
- \* مدير قسم الإجازة في دار القرآن مالك بن نبي، بالجزائر العاصمة.
- \* عضو في مكتب الدراسات العلمية، ومعهد المناهج، بالجزائر العاصمة.
- \* من أبحاثه:
- العمل الجماعي، مطبوع في سلسلة ما بأنفسهم.
- بحث في الحكم الشرعي للقراءات.
- بحث حول مقارنة "التعليم الذاتي".

## تمهيد:

إنَّ القارئ لما كَتَبَهُ الرَّصَافِي فِي كِتَابِهِ "الشَّخْصِيَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ" عَنْ الْقُرْآنِ، لَيَعْجَبُ مِنَ الْمُغَالَطَاتِ الَّتِي رَاحَ الْكَاتِبُ يَتَقَنَّ فِيهَا، وَقَدْ حَاولْنَا - فِي رَدُّنَا هَذَا - أَنْ نَعْرَضَ نِجَازِجَ مِنْهَا، لِيَتَبَيَّنَ مَنْ لَهُ أَدْنَى مَعْرِفَةٍ بِهَذَا الْعِلْمِ أَنَّ مَا وَرَدَ فِي هَذَا الْمُؤَلَّفِ لَا يَرْفَعُ إِلَى مُسْتَوَى الْعَمَلِ الْعِلْمِيِّ الْجَادِّ، وَلَكِنَّهُ يَنْدَرِجُ ضَمْنِ "أَدَبِ التَّشْكِيبِ وَالْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ"، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ .

وَالْمُغَالَطَاتُ هِيَ عَلَى التَّوَالِي:

## المُغَالَطَةُ الْأُولَى:

قَالَ الرَّصَافِي: " فَإِنَّهُ فِي كِتَابِهِ هَذَا يَنْقُلُ لَكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُتَنَاقِضَةِ مَا يَتَرَكُّكَ فِي حَيْرَةٍ.....فَمَثَلًا يَتَكَلَّمُ لَكَ عَنِ الْأَحْرَفِ السَّبْعَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ، فَيَأْتِيكَ فِيهَا بِنَحْوِ أَرْبَعِينَ قَوْلًا لَا يُوَافِقُ أَحَدُهَا الْآخَرُ" ص: 701 .

إِنَّ الْأَرَاءَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي مَوْضُوعِ الْأَحْرَفِ السَّبْعَةِ، عَلَى كَثَرَتِهَا وَاخْتِلَافِهَا، لَا تَبْلُغُ حَدَّ التَّنَاقُضِ - كَمَا يَزْعُمُ الْكَاتِبُ - ، فَالْمُتَنَاقِضَانِ، عِنْدَ الْمَنَاطِقَةِ، هُمَا: "مَا لَا يَلْتَقِيَانِ مَعًا، وَلَا يَرْتَفَعَانِ مَعًا." وَالْمُحَصَّنُ لِهَذِهِ الْأَرَاءِ الَّتِي ذَكَرَهَا السَّيُّوطِيُّ، وَهُوَ الْمَصْدَرُ الْوَحِيدُ الَّذِي رَجَعَ إِلَيْهِ الْكَاتِبُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، يَجِدُ أَنَّهُ أوردَ أَرْبَعِينَ قَوْلًا<sup>(1)</sup> مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ هَذَا الْفَنِّ،

---

(1) الْإِتْقَانُ، ص: 133 .

ولم يقف السيوطي عند هذا الحدّ، بل ردّ بعضها، وصوّب البعض الآخر<sup>(1)</sup>،  
والدّارس لهذه الأقوال يجدها مُتقاربة إلى حدّ بعيد... وإليك هذه المقارنة بين  
بعض الآراء التي صوّبها السيوطي:

الرأي الأول <sup>(4)</sup>	الرأي الثاني <sup>(3)</sup>	الرأي الثالث: المعاني المتفقة بالفاظ مختلفة <sup>(2)</sup>
الحرف الأول	اختلاف في الأسماء	لُغة قريش
الحرف الثاني	اختلاف في تصريف الأفعال	هذيل
الحرف الثالث	اختلاف في وُجوه الإعراب	هوازن
الحرف الرابع	اختلاف في اللُّغات	تميم
الحرف الخامس	اختلاف في التقديم والتأخير	سعد بن بكر
الحرف السادس	اختلاف في الزيادة والنقصان	الأزد
الحرف السابع	اختلاف في الإبدال	ربيعة

(1) المصدر نفسه.

(2) وهو ما ذهب إليه سُفيان بن عيينة.

(3) وهو ما ذهب إليه أبو حاتم السجستاني..

(4) وهو ما ذهب إليه أبو فخر الرّازي.

فالمُتأمل في هذا الجدول يلحظ أنَّ القول الثاني يُقصد به اللُّغات السَّبع للقبائل العربيَّة بشبه الجزيرة، ونجد هذه اللُّغات مُحتواة فيها يراه أبو فخر الرَّازي أنَّ من بين الأحرف السَّبعة "اختلاف اللُّغات العربيَّة" من القبائل السَّبع من يثرب، وأزد، وربيعة، وهوازن... والحال نفسه بالنسبة إلى الرَّأي الثالث، فهو يذهب إلى أنَّ الأحرف السَّبعة هي تلك الألفاظ المُختلفة من المعاني المُتَّفقة، فهي مُشتركة مع الرَّأي الأوَّل، وتندرج - بالتَّالي - في اختلاف الأسماء من إفراد وجمع؛ كقوله تعالى: "الصلوة/ الصَّلوات"، وفي الإبدال: إبدال كلمة مكان أُخرى، وفي الزَّيادة والنقصان: كقوله تعالى: "وما خلق الذَّكر والأنثى/ والذَّكر والأنثى". بإضافة كلمة، وحذف أُخرى، على غرار ما ذكره السَّجستاني؛ مثل قولنا: "كُلِّمًا أضاء لهم مشوا/ سعا/ مضوا فيه..."

وبالتَّالي؛ فإنَّ حُكَمَ الرِّصافي على أنَّ الأقوال التي أوردها السيوطي في موضوع الأحرف السَّبعة مُتناقضة، ولا يُوافق أحدها الآخر، حُكَم خاطيء، غير مُبنيٍّ على دليل، ذلك أنَّ هذه المُقارنة قد بيَّنت أنَّ هذه الأقوال يُمكن أن تلتقي معاً، وبالتالي؛ ينتفي التناقض عنها.

ونحنُ لا ننفي وجود آراء أُخرى شارحة لمعنى حديث "الأحرف السَّبعة": "نزل القرآن على سبعة أحرف، كُلُّها شاف كاف"، نحاول أن نُفسِّر هذا الحديث تفسيراً باطنياً عميقاً، إلَّا أنَّ أغلبها سقيم، لا يستند إلى دليل، ذلك أنَّ كلاً يُحاول تفسير الحديث من زاويته: فالفقيه يرى بأنَّ الأحرف هي: ما نزل من القرآن من حلال وحرام، ومُحكَّم ومُستأباه؛ وعالم

العقيدة يرى أنَّها: علم صفات الذات، وعلم الحشر والحساب، وعلم صفات الفعل.... أمَّا العالم في القراءات؛ فله شروحه لهذا الحديث، غير أنَّ تَجمُل ما ذهب إليه هؤلاء لا يوصَفُ بالتناقض، خلافاً لما قاله الرَّصافي<sup>(١)</sup>.

### المغالطة الثانية،

يقول الرَّصافي: " فَإِنَّهُ - في كتابه هذا - ينقل لك من الأقوال المتناقضة ما يتركك في حيرة.... فمثلاً؛ يتكلَّم لك عن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، فيأتيك فيها بنحو أربعين قولاً، لا يُوافق أحدهما الآخر، ثُمَّ يذكر لك أحاديث وأقوالاً، وكلُّها تقول: اقرأ القرآن بألفاظ مختلفة من المعاني المتفقة. " ص: 701.

وفي هذا الصّد يقول: "... وهو في ذلك يفهمك أنَّ القرآن هو المعنى، وأنَّه يجوز إن لم تقرأه بالمعنى، فلا عليك أن تُبدل منه كلمة بأخرى، تؤدِّي معناها ما لم تُغيِّر المعنى " ص: 701.

ويقول: " ... على أنَّهم كانوا يقرؤون: لا بتوقيف، ولا بتعليم، بل يقرأ كلُّ منهم بلغته، فيبدلون الألفاظ، ويُغيرونها بحسب لغاتهم، مع المحافظة على المعنى " ص: 702.

عندما نقرأ للرَّصافي صفحات من كتابه اللُّغز المُقدَّس، نتيقن أنَّه قد نحى منحى المُستشرقين في البحث عن منافذ للتشكيك في القرآن، فما أوردته الكاتب في الموضوع ليس بجديد، بل قد سبقوه إليه. فالرَّصافي - على غرار

---

(1) صُبحي الصَّالح: مباحث في عُُلُوم القرآن؛ ص 706-708.

بعض المستشرقين - يستدلُّ بكثرة الأتوال في الأحرف السبعة، وتناقضها، وباختلاف القراءات القرآنيَّة، وتنوُّع أدائها، في القول بأنَّ معنى القرآن الكريم من الله سبحانه تعالى، واللَّفْظ من وُضِعَ البشر، سواء أكان من الرّسول ﷺ نفسه، أم من صحابته رضوان الله عليهم، ولكنَّ الكاتب لا يلبث أن يناقض نفسه، ويُثبِّت مزاعمه من حيث لا يدري حين يقول في صفحة 717: "...وفي قراءة رسول الله "إِنَّا أَنْطَيْنَاكَ الْكَوْنُ" بالنون،...و- أَنْطى - هي كلمة بياضيَّة، ورسول الله قرشي عدناني، ويجوز الله قرأ باللغة البياضيَّة تعليماً لأُمَّته..."

ويقول في صفحة 702: "...ولا تُنكر أنَّ من القراءات ما هو توقفي، بمعنى أنَّ النَّبيَّ ﷺ قرأه، فرواه عنه من سمعه من الرواة..." بهذا؛ يكون الرّصافي قد وقع في تناقض صارخ، فبعد أن قال بأنَّ الصّحابة كانوا يُبدّلون، ويُغيِّرون في الفاظ القرآن ما لم يتغيَّر المعنى، نجد، يروي لنا كيف أنَّ رسول الله ﷺ علّم أحد صحابته اليسيين سورة الكرّثر، وهذا يتناقض - تماماً - مع كون الألفاظ في القرآن الكريم من وُضِعَ الصّحابة.

وأضاف الرّصافي أنَّ هناك من القراءات ما هو توقفي، ولم يُنكر ذلك في قوله: "...ولا تُنكر أنَّ من القراءات ما هو توقفي..." ص: 702.

فالتوقيفيَّة في علم القراءات تعني: أنَّ للتلاوة طريقة معلومة متواترة عن الرّسول الكريم، عن اللّوح المحفوظ. عن ربِّ العزّة، جلَّت قدرته. في أداء النّصّ القرآني. وإقرار الكاتب بهذا يُنافي - تماماً - ما ذهب إليه من أنَّ



القراءات القرآنية هي نتاج تبديل الرسول والصحابة للألفاظ، وتغييرها، مع حفاظهم على المعنى.

وما أوردناه هنا يدلُّ دلالة واضحة أنَّ الرِّصافي يُغالط، ويتفنَّن، في المغالطة، ويدلُّ - كذلك - على جَهْلِهِ بمدلول مُصطلح "التوقيف"، وكان الأخرى به أن يحترم التَّخْصُّص، وأن لا يقول في علم جليل مثل علم القراءات برأيه، دُون معرفة، ولا دراية.

### المغالطة الثالثة:

يقول الرِّصافي، وهو يُردِّد ما عُرف به رُؤاد نظرية القراءة بالمعنى: " ... على أنَّهم كانوا يقرؤون لا بتوقيف، ولا بتعليم، بل يقرأ كُلُّ منهم بِلُغته، فيبدِّلون الألفاظ، ويُغيِّرونها بحسب لُغاتهم، مع المحافظة على المعنى " ص: 702.

"... إن لم نقرأه بالمعنى، فلا عليك أن تبدل منه كلمة بأخرى تُؤدِّي معناها، ما لم تُغيِّر المعنى.... " ص: 701.

"... على أنَّهم كانوا يقرؤون؛ لا بتوقيف، ولا بتعليم، بل يقرأ كُلُّ منهم بِلُغته.... " 702.

إنَّ ممَّا فتح الباب لبعض المُستشرقين وضعاف الإيمان في القول بأنَّ قراءة القرآن تكون بالمعنى، هو فَهْمُهُم القاصر لبعض النُّصوص من جهة، وتخللها على غير وجهها الحقيقي من جهة أُخرى، ومن الأمثلة على ذلك قول

رسول الله ﷺ: " يا عمر؛ إِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ صَوَابٌ، مَا لَمْ تَجْعَلْ رَحْمَةً عَذَاباً،  
أَوْ عَذَاباً رَحْمَةً." (١).

فالفَهْمُ السَّقِيمُ لهذا الحديث فَتَحَ الباب أمام المفرضين؛ ليجعلوا منه  
مطية لإخضاع النص القرآني إلى هواهم، واعتبروا أَنَّ الخطأ الأحمر الوحيد في  
التلاعب بالفاظ القرآن هو "إبدال آية عذاب بآية رحمة، أو العكس"، وهذا  
- بالتحديد - ما نهجه الرصافي، جاهلاً بكلِّ الصوابِط الأخرى، التي قيَّدت  
هذا الحكم العام من مثل قوله ﷺ: " مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعِدَهُ  
مِنَ النَّارِ." وقوله: " أنزل القرآن على سبعة أحرف، كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ.".

وهذا يعني أَنَّ نَزُولَ الْقُرْآنِ مِنْ اللَّهِ - تعالى - على هذه الأحرف كافٍ  
في المباني، وتعدُّدها، وشافٍ في المعاني، وتناسقها.

وقد أنكر ابن الجزري في كتابه "النشر" نظرية القراءة بالمعنى،  
فقال: "أَنَا مَنْ يَقُولُ بَأَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ، كَابْنِ مَسْعُودٍ، كَانَ يُبَيِّزُ الْقِرَاءَةَ  
بِالْمَعْنَى، فَقَدْ كَذَبَ عَلَيْهِ، إِنَّمَا قَالَ: "نَظَرْتُ الْقُرَّاءَ، فَوَجَدْتُهُمْ مُتَقَارِبِينَ،  
فَاقْرَءُوا كَمَا عَلَّمْتُمْ".

وهذا بيان صريح بَأَنَّ تعدُّد الألفاظ للمعنى الواحد إِنَّمَا هُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى  
تَنَاقُلِ الْقُرَّاءِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَيْسَ مُسْتَنَداً إِلَى  
وَضْعٍ وَاضِعٍ كَمَا يَزْعُمُ الرَّصَافِيُّ، وَمِنْ لَفِّ لَفِّهِ.

---

(١) الزركشي: البرهان؛ ج ١ / ص ٢٢٠.

وعلى افتراض أن الرسول ﷺ أحجاز لعمر أن يتسرأ بالفساط مختلفة المعاني المثقة، فالمقصد وراء ذلك هو التيسير والتسهيل على الأمة في فهم ألفاظ القرآن الكريم، وهو نوع من التفسير والتأويل والبيان؛ وليس المراد من هذا الكلام إثبات تلك الألفاظ على أنها قراءة صحيحة عن رسول الله ﷺ؛ لأنَّ للقراءات القرآنية ضوابطها، وشروط قبولها.

### المخالطة الرابعة:

يقول الرصافي في صفحة 202: "و قد ذكرنا فيما تقدم، عند الكلام على جمع القرآن ما رواه البخاري عن أنس: "أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ كُتِبَ عَلَى عُمَيْيَانَ، وَكَانَ يُغَايِزُ أَهْلَ الشَّامِ فِي فَتْحِ أُرْسِينِ وَأَذْرِييَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، أَنْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافَهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ لِعُمَيْيَانَ: أَدْرَكَ الْإِمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا، اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. فَأَرْسَلَ إِلَى حَنْظَلَةَ أَنْ أُرْسِيَنِي إِلَيْهَا الصَّخْرَةَ، نَسَخَهَا فِي الْمَسَاحِفِ، إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ."

وعقب الرصافي قائلًا في صفحة 202: "فلهذا أفسح حذيفة اختلافهم في القراءة، لو كان توقيفيًا...!"

إنَّ ما لم يفهمه الرصافي هو أنَّ القراءات القرآنية - رغم اختلافها - وتعدد الفاظها - لا ينبغي كونها توقيفية؛ لأنَّ مصدرها واسدُّ رسول الله ﷺ عن اللوح المحفوظ، عن الله سبحانه وتعالى. والكاتب نفسه أقرَّ بذلك في مناسبات عديدة، حين روى قصَّة البصري. أخفَّ إلى ذلك قوله: "ولا نذكر أنَّ من القراءات، ما هو توقيفي"

وأما الحرص الشديد الذي أظهره النصحاوي حذبة بن السيمان حين  
 اختلص الناس في القرآن؛ سببه اللحن والتحريف والتصحيح الذي طرأ  
 على النسخ القرآني، والذي يعود بدوره - إلى امتناع رفعة الدولة الإسلامية.  
 ودخول الأعاجم الإسلام. من مثل أرمينية، وأذربيجان، بالإضافة إلى قلّة  
 من يحصل على كاهله مسؤولية تبليغ كلام الله إلى هذه الأسفار النائية.  
 فحِرْصٌ حذيفة - إذن - لم يكن بسبب اختلاف الناس في الأداءات التوقيفية  
 للقرآن، بل كان سببه تطرّق اللحن والتحريف، الذي لا يوافق قراءة من  
 القراءات، التي ثبتت عن رسول الله ﷺ، وهذا لون من ألوان القراءة  
 الشاذّة، التي لا يقرأ بها في الصلاة؛ لكونها ليست من القرآن.

### المخالطة الثالثة:

إنّ من أغرب ما نقرؤه للرّصافي في كتابه هذا؛ التصنيف الذي أورد  
 في معرض حديثه عن القراءات القرآنية، وأنواعها، والذي لا نجده في  
 مصادر علوم القرآن، وعلم القراءات، فقد أورد سبع عشرة نوعاً من أنواع  
 القراءات، جمّع بعضها من الأحرف السبعة؛ مثل: قراءة بتشديد وتأخير،  
 وقراءة ناشئة من اختلاف اللغات، وقراءة بتبديل كلمة مكان أخرى،  
 وقراءة بتقص، وقراءة بتغيير وجوه الإعراب ... وقد استرسل الرّصافي في  
 سرد أنواع هذه القراءات القرآنية، التي لم يعلم مصدرها.

وأقلّ ما يمكننا قوله هو أنّ الرّصافي خلط بين القراءات السبعة،  
 والأحرف السبعة، فهو لا يميّز بينهما، وهذا خطأ علمي لا يقبل من مُبتدئ.

وهو خبر دليل على أنَّ الكاتب لا يفقه من علم القراءات وعُلُوم القرآن شيئاً، إلا أنَّ حِقْدَهُ وَبُغْضَهُ للقرآن حملاه على أن يكتب ما شاء، كيفما شاء.

والرّصافي لا يقف عند هذا الحدّ من الجهل بأدنى المعارف في علم القراءات، بل يتناول على عالم من أبرز العلماء المتخصّصين في عُلُوم القرآن، ليعيب كتاباته، وآراءه؛ بلسان سلط حادّ، ولُغة حاقدة حانقة، فيقول:

"وقد سمّي السيوطي كتابه هذا بالإتقان، وليس هو بالإتقان، بل جَمَعَ كُلَّ ما قيل في القرآن برُهان، وبلا بُرهان..." ص: 703.

ومن أبجديّات البحث العلميّ الرّصين، أنّه لا يُؤسّس على السّبب، والشتم، والتّقيص، بل على الدّليل، والبُرهان، والإنصاف.

### المغالطة السادسة:

يقول الرّصافي: ولا نُنكر أنَّ من القراءات ما هو توقيفي، بمعنى أنَّ التّبي قرأه، فرواه عنه مَنْ سمعه من الرّواة، ولكنَّ هذا قليل جدّاً بالنّسبة إلى ما قرأه النَّاس من القراءات الكثيرة، التي كانوا يقرؤونها بحسب المعنى، لا بحسب التّوقيف. "ص: 702.

إنَّ ما أورده الكاتب من أحكام في هذا السّياق، لم يستند فيه لا إلى مصدر، ولا إلى دليل علمي؛ فالأصل ردُّ هذه الأحكام التي لا تملك قيمة علميّة.

ومعلوم بداهة أنَّ هذه القراءات التوقيفية هي القراءات الصحيحة  
المُعتمدة، لثبوتها عن رسول الله ﷺ لفظاً ومعنى، أمَّا غيرها ممَّا تراه الناس  
بالمعنى؛ فليس بتوقيف، وهو ما يُعرف بالقراءات الشاذة غير الصحيحة؛  
لأنَّه يدخل ضمن ما صحَّ معناه، ولم يثبت سنده إلى رسول الله ﷺ .

ونسبة القراءات الشاذة إلى الصحيحة نسبة ضئيلة جداً، على خلاف  
زعم الرصافي ومن على شاكلته، من أنَّ الشاذَّ هو الأصل، والتوقيفي  
هو الاستثناء.

## الخاتمة

إنَّ محاولة الرّصافي، في حَلِّ اللُّغز المقدّس، تُصنّف ضمن الكتابات الأدبيّة الرّاقية في مابنيها وصيغها اللّغويّة والبلاغيّة، ولكنها تخلو من كُلِّ فبسة علميّة إذا تمّ تحييصها بنظرة مُتخصّصة في علم القراءات، وعُلُوم القرآن، مُتوهماً بأنَّ قُوّته الأدبيّة واللّغويّة تُحوّل له أن يقول ما يشاء، ويُصدر من الأحكام ما يخلو له في كلام الله تعالى، الذي ظلَّ محفوظاً، وسيظلُّ كذلك بإذنٍ من الله تعالى، وبعمل وتфан من أهل القرآن، وخاصّته.

قال جلّ قُدْرُهُ في مُحْكَم تنزيله:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

## الفهرس

هذا الكتاب (أ. د. مُحَمَّد بن موسى باباعمي) .....	٣
كتاب الشخصيّة المَحْمَدِيّة في ميزان المنطق والعقل	
(أ. د. أحمد مُوساوي) .....	٧
أ- التناقضات .....	١١
التناقض الأول: .....	١١
حول صفات الشخصيّة المَحْمَدِيّة .....	١١
التناقض الثاني: .....	١٣
موقف الكاتب من بعض المصادر .....	١٣
التناقض الثالث: .....	١٥
حول موقف الكاتب من الشُّرك بالله .....	١٥
التناقض الرابع: .....	١٩
موقف الكاتب من الرسالة المَحْمَدِيّة .....	١٩
ب. المغالطات المنطقيّة .....	٢٣
أ. مُغالطة العكس غير المشروع، أو العكس المُستوي: .....	٢٣
ب. مُغالطة الخُرُوج عن الموضوع: .....	٢٥
ج. مُغالطة الدّور الفاسد: .....	٢٧
ج. الاحكام المُسبقة .....	٢٩
التحليل النقديّ للأحكام المذكورة: .....	٣٣
تحليل الحكم الأول ونقده: .....	٣٣
تحليل الحكم الثاني ونقده: .....	٣٤
تحليل الحكم الثالث ونقده: .....	٣٥
تحليل الحكم الأول ونقده: .....	٣٨
تحليل الحكم الثاني ونقده: .....	٣٩
تحليل الحكم الثالث ونقده: .....	٤٠



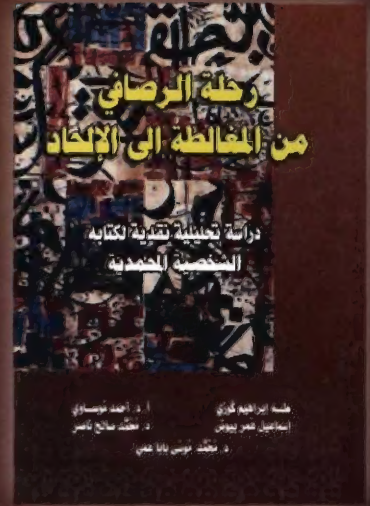
١. أحكام حول الغاية من الرسالة المحمدية: ..... ٤١
- 1.1 عرض الحكم الأول: ..... ٤١
- تحليل هذا الحكم ونقده: ..... ٤١
- 2.1 عرض الحكم الثاني: ..... ٤٢
2. أحكام حول الوسائل المعتمدة لتحقيق الغاية من الرسالة المحمدية: ..... ٤٣
- 1.2 عرض الحكم الأول: ..... ٤٣
- تحليل هذا الحكم ونقده: ..... ٤٣
- 2.2 عرض الحكم الثاني: ..... ٤٥
- تحليل هذا الحكم ونقده: ..... ٤٥
- د. مسألة توضيحية: ..... ٤٦
- أ. طبيعة الألفاظ القرآنية: ..... ٤٨
- ب. استعمالات التراكيب القرآنية: ..... ٥٥
- ج. البنية المنطقية للتراكيب القرآنية: ..... ٥٨
- القرآن فحكمة محمد بين المغالطة والدجل (أ. د. محمد صالح ناصر) ..... ٥٩
- القرآن فكرة محمد: ..... ٦١
- أسامي القرآن: ..... ٦٢
- فواصل القرآن: ..... ٦٤
- الفواصل الثقيلة: ..... ٦٨
- الخطأ في المنهج: ..... ٧١
- فوائح السور: ..... ٧٤
- هل سقط شيء من القرآن عنا جميعه؟! ..... ٧٦
- هل القرآن منزل من السماء؟! ..... ٧٨
- ما معنى الكتاب؟ ..... ٨١
- هل القرآن معجز؟ ..... ٨٤

٩١	أَسْلُوبُ التَّهَكُّمِ وَالشَّخَرِيَّةِ مِنَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ
٩٢	تَظَاوُلُ عَلَى اللَّهِ وَأَهْلَامُ الْقُرْآنِ بِالْمُعَالَطَةِ
٩٤	الْمُحَكَّمُ وَالْمُشَابَهُ
٩٦	الْقَصَصُ الْقُرْآنِيُّ
٩٦	المسيح بن مريم
٩٨	وِخْلَاصَةُ الْقَوْلِ
	<b>الأخطاء المنهجية في كتاب الشخصية المحمدية</b>
١٠١	(أ. د. محمد بن موسى بابا عمي)
١٠٣	التَّحْقِيقُ وَنَسْبَةُ الْكِتَابِ إِلَى الرَّصَافِيِّ
١٠٣	١- التَّعْمِيةُ عَلَى الْمَوَاصِفَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الدَّقِيقَةِ لِلنُّسخَةِ الْمُعْتَمَدَةِ
١٠٣	٢- إِخْفَاءُ اسْمِ الْمُحَقِّقِ، أَوْ الْمُحَقِّقِينَ
١٠٤	٣- اعْتِيَادُ نُسخَةٍ وَاحِدَةٍ، مُصَوَّرةٍ مِنَ النُّسخَةِ الْأَصْلِيَّةِ
١٠٤	٤- نَقْرَافُ ص ١٣ تحت عنوان: إيضاح في النُّسخَةِ الْأَصْلِيَّةِ
١٠٥	٥- نَسْبَةُ الْكِتَابِ - بِهَذِهِ الصِّفَةِ - إِلَى الرَّصَافِيِّ غَيْرَ ثَابِتَةٍ
١٠٦	٦- مِنْ أَيْضَاتِ التَّحْقِيقِ الْعِلْمِيِّ مَا يُعْرَفُ بِتَحْقِيقِ مَثْنِ الْكِتَابِ، وَمَعْنَاهُ
١٠٧	٧- الْمُسَادَرُ وَالْمَرَاغَةُ حُسِرَتْ فِي قَائِمَةِ مُخْتَطَطَةٍ
١٠٨	الْخُلُوعُ فِي الْمَوَاصِرِ الْمُعْتَمَدَةِ
١١٠	الْجَهْلُ بِالتَّارِيخِ
١١٢	الْحُكْمُ بِلا عِلْمٍ، وَلَا دَلِيلٍ
١١٣	أَيْنَ الدَّلِيلُ؟! وَمَا هُوَ مِقْيَاسُ الْحُكْمِ؟!
١١٤	بَيْنَ التَّخْطِيطِ الْإِسْتِغْنَائِيِّ وَالْخِيَالِ الْجَامِحِ
١١٦	التَّعْمِيمُ وَتَصْيُّدُ الشَّائِئِ مِنَ الْأَخْبَارِ
١١٧	فَمَا الدَّلِيلُ - إِذَنْ - عَلَى هَذَا التَّعْمِيمِ؟
١٢٠	الْمُصْلِحُ عِنْدَ انْتِزَاعِ الْإِنْفِ

السَّفْطَةُ: .....	١٢٢
ابْنُ خَلْدُونِ يَنْقُذُ الرَّصَافِيَّ ! .....	١٢٣
مِزَالِقُ الرَّصَافِي فِي عِلْمِ الْفَالَكِ (أ.الباحث إسماعيل بن عَمْرٍو يَبْرُوضُ) ١٢٧	
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ .....	١٢٩
الْأَرْضُ مَرْكَزٌ لِلْكَوْنِ ! .....	١٢٩
أَيُّهَا خَلِيقُ أَوَّلًا: الْأَرْضُ أَمْ السَّمَوَاتُ؟ ! .....	١٣٠
الْخِلَافَةُ بَيْنَ خَلْقٍ وَقَضَى: .....	١٣٣
مَنْ قَالَ إِنَّ السَّدْمَ تُرَى؟ ! .....	١٣٤
تَنَاقُضٌ آخَرُ: .....	١٣٥
وهذا تناقض آخر للكاتب: .....	١٣٥
التَّفَاوُتُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: .....	١٣٥
هل السَّاءُ جِسْمٌ أَمْ لَسْ؟ .....	١٣٥
﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾: .....	١٣٦
الْخُلَاصَةُ .....	١٣٧
مُقَالِصَاتُ الرَّصَافِي فِي عِلْمِ الْقُرَآئَاتِ (أ.الباحث طه بن إبراهيم كَوَزِي) ١٣٩	
تَمْهِيدُ: .....	١٤١
الْمُقَالَظَةُ الْأُولَى: .....	١٤١
الْمُقَالَظَةُ الثَّانِيَّةُ: .....	١٤٤
الْمُقَالَظَةُ الثَّلَاثَةُ: .....	١٤٦
الْمُقَالَظَةُ الرَّابِعَةُ: .....	١٤٨
الْمُقَالَظَةُ الْخَامِسَةُ: .....	١٤٩
الْمُقَالَظَةُ السَّادِسَةُ: .....	١٥٠
الْخَاتِمَةُ: .....	١٥٣



(الشَّخْصِيَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ) كتاب ألفه الشَّاعر معروف  
الرَّصَافِي مَنْ يَتَأَمَّلُهُ يَتَقَنَّ أَنَّ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ ادِّعَاءَاتٍ  
وَافْتِرَاءَاتٍ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَعَلَى  
الرَّسُولِ الْأَمِينِ، يَتَيَقَّنُ أَنَّ نَشْرَ الْكِتَابِ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ  
بِالذَّاتِ، لَهُ أَهْدَافٌ، وَأَيَّةُ أَهْدَافٍ !!...



يَأْتِي كِتَابُنَا هَذَا رَدًّا عَقْلِيًّا مَنْطَقِيًّا فِلَسْفِيًّا عِلْمِيًّا،  
يَكَادُ يَكُونُ خَالِيًّا مِنَ الْعَوَاطِفِ وَالْانْفِعَالَاتِ وَرُدُودِ  
الْفِعْلِ الْأَنِيَّةِ، الَّتِي تَزْخُرُ بِهَا الرُّدُودُ عَلَى كُتُبِ مَا  
تُنَشَرُ. وَقَدْ أَقَامَ الرَّصَافِي فِكْرَتَهُ كُلَّهَا عَلَى أَسَاسِ أَنَّ

مُحَمَّدًا عَظِيمٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْبَشَرِ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ نَبِيًّا، وَلَيْسَ مُوحًىً مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّ  
الْقُرْآنَ مِنْ اخْتِرَاعِهِ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ مِنْ بَنَاتِ أَفْكَارِهِ !!  
اشْتَرَكَ فِي تَأْلِيفِ هَذَا الْكِتَابِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَسَاتِذَةِ الدُّكَاتِرَةِ، كُلٌّ حَسَبَ اخْتِصَاصِهِ  
(دُكْتُورَاهُ فِلَسْفَةٍ وَمَنْطِقٍ، دُكْتُورَاهُ دَوْلَةٍ فِي الْعُقَائِدِ وَمَقَارَنَةِ الْأَدْيَانِ، وَفِي اللُّغَةِ  
الْعَرَبِيَّةِ، وَفِي عِلْمِ الْفَلَكَ، وَفِي اللُّغَةِ وَالدراسات القرآنية).

ISBN 964 0- 8793- 08 - 5



9 799648 793085

الناشر

مطبعة ناسع الحجج (ع)